سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى (*)

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

تمخضت الحركة الصليبية في أواخر القرن الثاني عشر عن مولد مملكتين مسيحيتين صغيرتين في الركن الشمالى الشرقي من البحر المتوسط، هما مملكة قبرس ومملكة أرمينية الصغرى . وقد أثارت هاتان المملكتان اهتمام الباحثين نظراً لقدرتهما الغريبة على البقاء والصمود والاستمرار ، رغم كل الظروف المعاكسة التى أحاطت بهما ، حتى أنهما بذتا في طول العمر كافة البقايا الصليبية الأخرى في شرق حوض البحر المتوسط[1]. وإذا كانت كل من هاتين المملكتين قد اختلفت عن الأخرى في الأصل والنشأة وكثير من الظروف المحيطة بها ، فإن تاريخهما ظل مرتبطاً بعضه ببعض ارتباطاً قوياً واضحاً . وربما كان بعض السر في ذلك إحساس هاتين المملكتين بوحدة المصير ووحدة الأخطار التى هددت كيانهما ، وبخاصة في الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية .

وإذا كان مقر إحدى هاتين المملكتين — وهى مملكة لوزجنان — قد قد ارتبط بجزيرة قبرس ، بوضعها الجغرافي الثابت المعروف ؛ فإن المملكة الأخرى — وهى مملكة أرمينية الصغرى — قامت في المنطقة التى عرفت قديماً باسم قيليقية ، أعنى الإقليم الواقع في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى بين

(*) محاضرة ألقيت بدار الجمعية مساء ٢٦ فبراير ١٩٦٨

(1) Stubbs : Seventeen Lectures on Mediaeval and Modern History ; p. 181.

جبال طوروس والبحر . وقد أطلق العرب على هذا الإقليم إسم الدرب ، أى الطريق ، الذى يسلك ما بين طرسوس وبلاد الروم[١] .

وكان من الطبيعى أن يهتم المسلمون منذ وصولهم إلى أطراف الشام في القرن السابع للميلاد بذلك الإقليم ، نظراً لموقعه الاستراتيجى على أبواب دولة الروم ، وهو الموقع الذى جعل منه ثغراً من أهم الثغور الإسلامية وأكثرها خطراً . والمعروف أن العرب أطلقوا على كل مركز قريب من أرض العدو إسم ثغر ، الأمر الذى ترتب عليه وجود عدة ثغور على أطراف الدولة الإسلامية ، في مختلف الاتجاهات . وهذه الثغور صارت موضع عناية حكام المسلمين ، فحشدوها بالغزاة ، وجعلوا منها مراكز حصينة للدفاع عن أراضى دولتهم حيناً والوثوب على أراضى أعدائهم المجاورة أحياناً . ولاشك في أن الروم بالذات ظلوا يشكلون خطراً على الدولة الإسلامية منذ نشأتها واتساعها ، وهو خطر يختلف عن الخطر الذى ينجم عن بقية القوى الأخرى المجاورة لدولة المسلمين ، وذلك بحكم ما للروم من إمبراطورية ذات نظام سياسى مستقر وحضارة عريقة .وأدرك هذه الحقيقة جمهرة كتاب المسلمين ، فقال قدامة بن جعفر في كتاب الخراج ما نصه : «ينبغى أن لايكون المسلمون أشد حذراً منهم للروم[٢]» . لهذا اهتم المسلمون بإقليم قيليقية ، وأطلقوا على ذلك الإقليم — بما فيه من مراكز ومدن — إسم « ثغور الشام » ؛ وأسهب كتابهم في وصف سككها وطرقها ومسالكها[٣] .

وهكذا ظلت ثغور الشام ، ومدنها الرئيسية « طرسوس وأذنه والمصيصة وما ينضاف إليها ، بأيدى المسلمين ، والخلفاء مهتمون بأمرها ، ولا يولونها

---

(١) من الثابت أن هناك أكثر من مكان عرف باسم الدرب ، ذكر بعضها ياقوت فى معجم البلدان ، ولكنه قال انه اذا ذكر الدرب وحده دون أن يضاف اليه اسم موضع يحدده ، يكون المقصود به ما بين طرسوس وبلاد الروم ، لأنه مضيق كالدرب . واياه عنى امرؤ القيس بقوله :

بكى صاحبى لما راى الدرب دونه ... وايقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

(٢) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج وصفة الكتابة ــ الباب السابع .

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ــ طبعة بريل ، ص ٩٩ — ١٠٠

إلا شجعان القواد والراغبين منهم في الجهاد ، والحروب بين أهلها والروم مستمرة » . ويفهم من هذا أن المسلمين سيطروا فعلاً على قيليقية قروناً عديدة وأنهم جعلوا من مدنها مراكز زاهرة لحضارتهم وثقافتهم ، بدليل ما يرويه ياقوت من أن جماعة كثيرة من الرواة والزهاد والعباد نسبوا إلى ذلك الثغر وعلى رأسهم أبو أمية محمد بن ابراهيم بن مسلم بن سالم الطرسوسى الثغرى، وهو من الثقة[١] .

غير أن أوضاع قيليقية أخذت تتعرض للتغيير منذ القرن العاشر للميلاد . ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية — أو دولة الروم — كانت لايمكن أن تغفر للمسلمين ما فعلوه في القرن السابع الميلادى من اقتطاع أثمن أجزاء الدولة الرومانية في الشرق ، وهى الشام وشمال العراق ومصر ، وكلها بلاد ارتبطت بها أصول المسيحية ونشأة الكنيسة ، فضلاً عما لهذه البلاد من أهمية اقتصادية بالنسبة للعالم الرومانى . وإذا كانت القسطنطينية ، قد عجزت منذ القرن السابع للميلاد عن أن تثأر لنفسها من المسلمين، وتسترد أراضيها التى سيطروا عليها وحولوها في سرعة غريبة إلى اللغة العربية والديانة الإسلامية ، فإنه ليس معنى ذلك أن الروم — حكومة وشعباً — نسوا ما حل بهم على أيدى المسلمين . وأخيراً حانت ساعة الانتقام عندما اتضح ضعف الدولة الإسلامية في القرن العاشر الميلادى ، وهو الضعف الذى ظهر في صورة الانحلال السياسى وقيام دويلات إسلامية مستقلة في المشرق والمغرب على حساب الخلافة العباسية ، التى أخذت تمر بدور واضح من الركود الشديد . وجاء ضعف الدولة الإسلامية ، في المشرق مقروناً من الناحية الزمنية بنهضة كبيرة في الدولة البيزنطية ، وهى النهضة التى عبرت عن بعض جوانبها في صورة حربية فقام الامبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ — ٩٦٩) بشن حرب على المسلمين، بدأها باسترداد المصيصة وطرسوس وغيرها من مدن قيليقية ، ومنها تقدم

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان — مادة ثغر .

إلى شمال الشام ليسترد أنطاكية من المسلمين، ويضع حلب تحت الحماية البيزنطية[١]، كل ذلك والمسلمون عندئذ على حالة من الفتور لايقوون معها على المقاومة ، حتى عبر المؤرخ ابن الأثير عن هذه الأحداث تعبيراً موجزاً واضحاً عندما قال عن الروم «وعظمت شوكتهم وخافهم المسلمون في أقطار البلاد ، وصارت كلها سائبة لاتمتنع عليهم، يقصدون أيها شاءوا.. »[٢] ثم جاء بعد نقفور فوقاس الإمبراطور يوحناتمزيمسكس (٩٦٩ — ٩٧٦) الذى لقبه العرب بالشمشقيق ، فاستأنف سياسة سلفه في مهاجمة المسلمين في شمال العراق حيناً وفي الشام حتى دمشق أحياناً . وفي جميع هذه الأعمال كانت قيليقية قاعدة هامة لأعمال الروم الحربية ضد المسلمين[٣] .

ويهمنا من أمر هذا التطور أن قيليقية خرجت من أيدى المسلمين في القرن العاشر للميلاد ، فعادت تحت الحكم البيزنطى ، وهجرها معظم من كان فيها من المسلمين ليحل محلهم مسيحيون من الروم وغير الروم . وهكذا حتى كان القرن الحادى عشر للميلاد، فشهدت منطقة الشرق الأدني أحداثاً خطيرة بدأت بازدياد نفوذ السلاجقة وتوسعهم الكبير في تلك المنطقة من ناحية ، وانتهت بوصول أولى الحملات الصليبية إلى الشرق في أواخر ذلك القرن من ناحية أخرى .

أما عن السلاجقة الأتراك فقد ترتب على توسعهم الكبير في الأقاليم الواقعة شرقي آسيا الصغرى هجرة كثير من الأرمن من بلادهم الأصلية في أرمينية الكبرى إلى الأقاليم الواقعة غربي الفرات وشماليه ليستقروا في جهات كان بعض إخوانهم الأرمن قد سبقوا إليها وأسسوا فيها جاليات في عصور سابقة[٤] . واشتدت هجرة الأرمن من بلادهم عقب موقعة مانزكرت بوجه خاص (سنة ١٠٧١) ، وعندئذ اختار كثيرون منهم لإلتجاء إلى جبال

---

(١) Vasiliev : Hist. of the Byzantine Empire, p.p. 308 - 309 (Madison, 1961).

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ٢١٧ (حوادث سنة ٣٥٩ هـ) .

(٣) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. 257 (Oxford, 1956).

(٤) Iogra : L'Armenie Cilicienne, p.p. 87 - 88.

طوروس وإقليم قيليقية في جنوب شرق آسيا الصغرى ، فضلاً عن شمال بلاد الشام ، وجميع هذه الجهات كان فيها زعماء من الأرمن سبقوا إليها واستقروا فيها(١) . وعندما اتضح أن هذه المنطقة في الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى بعيدة نسبياً عن الطرق الرئيسية لتوسع السلاجقة ، هاجرت في نهاية القرن الحادى عشر جموع جديدة من الأرمن كانوا قد سبق أن تركوا بلادهم ونزحوا إلى إقليم كابا دوكيا في آسيا الصغرى ، وهم الذين كانوا أكثر تعرضاً لهجمات السلاجقة بعد أن أخذوا — عقب موقعة مانزكرت — يمدون نفوذهم بعيداً في جوف آسيا الصغرى . وفي قيليقية بالذات غدا الأرمن قوة كبيرة ، حتى أطلق المؤرخ جروسيه على قيليقية في ذلك العصر إسم « أرمينية الجديدة »(٢). على أنه يبدو أن أعداداً من أولئك الأرمن ظلوا منتشرين في آسيا الصغرى في الجهات الواقعة شمالى جبال طوروس — خارج قيليقية — بدليل ما جاء في بعض حوليات الحروب الصليبية من أن رجال الحملة الصليبية الأولى ما كادوا يقتربون من مدينة قيصرية في إقليم كابادوكيا ، حتى دخلوا « بلاد الأرمن » وأن الأرمن في الجهات المجاورة رحبوا بهم(٣).

ومهما تتعدد الأسباب التى ساعدت على ظهور ثم بقاء إمارات مستقلة أو شبه مستقلة للأرمن في الجهات الواقعة شمالى الجزيرة وشرقي آسيا الصغرى وجنوبها الشرقي ، فإن ثمة حقيقة كبرى ، هى أن الدولة البيزنطية — وبصفة خاصة في الربع الأخير من القرن الحادى عشر — كانت شبه عاجزة عن حماية حدودها الشرقية . ولما استكشف الأباطرة البيزنطيون أن الأرمن يكونون عنصراً قوياً على الأطراف الشرقية لدولتهم ، فكروا — مختارين أو مجبرين — في اتخاذ أولئك الأرمن درعاً حامياً ووسيلة وأداة للدفاع عن حدود الدولة من ناحية الشرق(٤) . ومهما يكن شأن أولئك الأرمن وموقفهم السابق في التاريخ من الدولة البيزنطية ، فإنه يكفى كونهم مسيحيين يؤمنون بالمسيح

(١) **Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 628.**

(٢) **Grousset : Hist. de l'Armenie, p. 522 (Paris, 1947).**

(٣) **Gesta Francorum, p. p. 55 - 61.**

(٤) **Ostrogorsky : op. cit. p. 343.**

ورسالته ، فى الوقت الذى كان الخطر الذى يهدد كيان الدولة البيزنطية من ناحية الشرق نابعاً — بصفة أساسية — من السلاجقة بالذات ، وهم مسلمون . وهكذا لجأ الأباطرة البيزنطيون إلى تعيين بعض الأرمن حكاماً على المدن الهامة في الأطراف الشرقية لدولتهم، بل لقد عهدوا لأولئك الأرمن بقيادة الحاميات الإمبراطورية في تلك الجهات ، فضلاً عن منحهم ضياعاً ومساحات شاسعة من الأراضى[1] .

وسرعان ما نظم الأرمن أمرهم في قيليقية ، فصار لهم رئيسهم الدينى الذى يدعى Katholicos ليرعى مصالحهم الدينية وفق طقوس الكنيسة الأرمينية وتعاليمها . ومن بين زعماء الأرمن الذين احتلوا مكانة خاصة في تاريخ الأقاليم الواقعة شرقي آسيا الصغرى في أواخر القرن الحادى عشر ، يبرز اسم فيلاريتوس براخاميوس نائب الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع في ملطية ومرعش . ذلك أن فيلاريتوس هذا استغل فرصة الفوضى التى حلت بالإمبراطورية البيزنطية عقب موقعة مانزكرت والتى أسر فيها الإمبراطور رومانوس الرابع سنة ١٠٧١ ، ورفض الإعتراف بالإمبراطور الجديد ، وأخذ يدعم مركزه حول مرعش ورعبان والابلستين ، حيث أقام إمارة قوية مستقلة عن الحكومة البيزنطية ، ازدادت منعة بعد أن استولى على ملطية ، التى كان السلاجقة قد انتزعوها . وعندما ظهرت قوة فيلاريتوس واتضحت أهميته ، دخل في تبعيته بعض زعماء الأرمن المجاورين ، وخاصة في قيليقية[2] . وهكذا أصبح فيلاريتوس يسيطر على مدن قيليقية الرئيسية ، مثل طرسوس والمصيصة وعين زربة . وفي سنة ١٠٧٧ أرسل فيلاريتوس أحد رجاله للاستيلاء على الرها من البيزنطيين ، فحاصرها ستة أشهر ، حتى استسلمت له المدينة أخيراً بفضل مساعدة من بداخلها من الأرمن . أما أنطاكية ، فقد قتل آخر حاكم بيزنطى عليها سنة ١٠٧٨ ، فخشى أمراء المدينة — ومعظم أهلها من الأرمن — أن يستولى السلاجقة المسلمون عليها ،

---

(١) **Setton : A Hist. of the Crusades, vol. 2, p. 631.**

(٢) **Iogra : L'Armenie Cilicienne, p. 89.**

ولذلك سلموها مختارين لفيلاريتوس[١] . ولم يلبث الإمبراطور البيزنطى نقفور الثالث (١٠٧٨ – ١٠٨١) أن اتبع سياسة حكيمة استهدفت تدعيم العلاقات الطيبة مع ذلك الزعيم الأرمنى ، في الوقت الذى أظهر فيلاريتوس من جانبه اعتدالا وحكمة ، فاعترف بسيادة إسمية للامبراطورية ، رغم أنه كان مستقلا عنها من الناحية العملية . ثم إن فيلاريتوس كان حذراً تجاه جيرانه المسلمين ، فاعترف في ممتلكاته القريبة من الموصل بالتبعية لبنى عقيل ، وهم أمراء الموصل العرب . ويذكر المؤرخ ميخائيل السرياني أن فيلاريتوس أراد أن يؤمن ممتلكاته من ناحية سلطان السلاجقة ملكشاه ، فاعترف له أيضاً بنوع من التبعية ؛ بل يذكر أنه كان مستعداً – إذا استلزم الأمر – لاعتناق الإسلام ، خدمة لمصالحه[٢] .

على أن السلاجقة كانوا لايمكن أن يغضوا البصر تماماً عن تلك الإمارة الأرمينية ، فاستولى سليمان بن قتلمش السلجوقي على أنطاكية سنة ١٠٨٥[٣] ولم تلبث إمارة فيلاريتوس الواسعة أن تعرضت للتفتت والضياع نتيجة لهجمات السلاجقة من ناحية وهجمات الصليبيين الذين وصلوا إلى الشرق قبل نهاية القرن الحادى عشر من ناحية أخرى . ومع ذلك فإن ثمة حقيقة هامة هى أن سيطرة السلاجقة على قيليقية لم تكن سيطرة قوية شاملة ، وبالتالى فقد ظل نفوذ الأرمن قوياً فيها [٤] . حقيقة إن بعض الكتاب المسلمين – مثل العمرى والقلقشندى [٥] – يؤكدون أن الأرمن في قيليقية « كانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك السلاجقة بالروم ، وعليهم جزية مقررة وطاعة معروفة ، والعمال والشحاني[٦] على البلاد من جهة الملك السلجوقي » . ولكن العبارة

(١) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 285.

(٢) Michael the Syrian, Chronique (tr. Chabot), vol. 3, p. 256.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٧

(٤) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 628 (part I).

(٥) شهاب الدين العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٥٥ (القاهرة ، ١٣١٢ هـ) ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٣٠

(٦) الشحنة هو مندوب السلطان أو الملك فى حكم بلد من البلاد أو ضبط أمورها .

السابقة لاتؤكد إحكام سيطرة جيوش السلاجقة على جميع أراضى قيليقية، وحكمهم للأرمن حكماً مباشراً . وإذا كانت بعض مدن قيليقية — مثل المصيصة — قد صارت في قبضة السلاجقة عند وصول الحملة الصليبيةالأولى فإن سيطرة السلاجقة على مثل هذه المدن لايعنى انقراض نفوذ الأرمن فيها . ثم إن تقديم « الطاعة » من جانب أمراء الأرمن في قيليقية لسلاطين السلاجقة وحكامهم كان يتم غالباً عن طريق تقديم المال والاعتراف بنوع من التبعية لهم، كما فعل فيلاريتوس ، اتقاء لشر أولئك الجيران الأقوياء . أما التعليل الطبيعى لعدم سيطرة السلاجقة على قيليقية سيطرة تامة شاملة ، فيرجع إلى صعوبة البيئة الجبلية من ناحية ، فضلا لأنها لم تقع على الطريق الرئيسى لغزواتهم إلى قلب آسيا الصغرى . حقيقة إن قيليقية درب أى طريق ، ولكنها درب بين بلاد الشام وآسيا الصغرى ، والسلاجقة لم يسلكوا طريق الشام لغزو آسيا الصغرى ، ولم يعتمدوا اعتماداً كلياً على طريق آسيا الصغرى لغزوالشام .

وهكذا لم ينقرض نفوذ الأرمن في الشرق بوفاة فيلاريتوس ، وإن كان يبدو لأول وهلة أن نفوذ الأرمن في قيليقية كان في أواخر القرن الحادى عشر أقل أهمية من نفوذهمشمالىجبال طوروس ، وبخاصة في إقليم الجزيرة(١). وثمة عائلتان من الأرمن ظلتا تتنافسان طويلاً وتتناطحان كثيراً حول الاستئثار بالنفوذ والسلطان في قيليقيه ، هما أسرة الهيثوميين وأسرة الروبينيين . أما أسرة الهيثوميين فمؤسسها أوشين الأول الذى نزح إلى قيليقيه حوالى سنة ١٠٧٣ — أى بعد موقعة مانزكرت — فانتزع قلعة لامبرون (النمرون) في غرب قيليقية من المسلمين . هذا وإن كانت بعض المراجع الأرمينية تذكر أن أوشين الأول كان من أتباع أبي غريب حاكم طرسوس الأرمني — وأن أبا غريب منح أوشين قلعة لامبرون . أما آل روبين فأصلهم لايقل غموضاً عن آل هيثوم ، إذ ينسبون إلى روبين الأول ، وهو أحد أقرباء كاجك ملك أرمينية الكبرى المتوفيسنة ١٠٧١ . وقد استقر روبين هذا في بعض القلاع

---

(١) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 629.

شرقي المصيصة في قيليقية ، ثم خلفه ابنه قنسطنطين الأول ليدعم نفوذ آل روبين في قيليقيه أواخر القرن الحادى عشر[١] .

ومن هذا يتضح أنه إذا كان آل هيثوم قد وطدوا نفوذهم في غرب قيليقية ، فإن ذلك جعلهم أكثر ارتباطاً بالامبراطورية البيزنطية ، في حين أن آل روبين الذين استقروا في الجزء الشرقي من قيليقية صاروا أكثر ارتباطاً بعديد القوى التي ظهرت فيما بعد بالشام والجزيرة ، مثل الصليبيين والمغول . والواقع إن تاريخ دولة أرمينية الصغرى ظل من بدايته حتى نهايته يرتبط داخلياً بالصراع بين هذين البيتين[٢] وفي هذا الصراع الطويل كان آل روبين هم دائما البادئون بالتوسع والعدوان ، في حين أن آل هيثوم لم يحاولوا التوسع أو استثارة جيرانهم بضم ممتلكات جديدة تحت سيطرتهم . وربما أدت جغرافية قيليقية وطبيعتها إلى هذا التباين بين سياسة آل هيثوم وآل روبين . ذلك أن الجزء السهلى من قيليقيه ترويه عدة أنهار صغيرة هى شيحان وجيحان (جيهان) وبردان ، وهى أنهار طرسوس والمصيصة وأذنة[٣] . وهذه السهول تنقسم إلى قسمين : السهل الأدني أو الغربي — ويسمى قيليقية السفلى — ويمتد من سفوح جبال طوروس حتى البحر ، وأهم مدنه طرسوس وأذنه ، وميناؤه الرئيسى على البحر المتوسط سلوقية أو سليقية[٤] . أما السهول الشرقية أو العليا فيفصلها عن السهول الغربية مرتفعات تعرف بجبل النور ؛ وأشهر مدن هذا الجزء المصيصة وعين زربه وسيس . وهذه الطبيعة هى التى فرضت على آل روبين سياستهم التوسعية ، لأنهم تحت تأثير العوامل الاقتصادية كان لابد لهم من النزول من معاقلهم الجبلية ليسيطروا على مدن السهل الواقعة على الطرق التجارية والمؤدية إلى المنافذ البحرية . وفي الوقت نفسه كان عليهم

(١) Setton : op. cit., II, p. 623.

(٢) Runciman : A Hist. of the Crusades, I, p. 196 - 197.

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، ص ٢٢٩

(٤) ذكر ياقوت أن سليقية مدينة وكورة ببلاد الروم ، وربما سموها سلوقية ، وهى من ناحية الشام بعد طرسوس ، ونسبت اليها السيوف والكلاب السلوقية (معجم البلدان) .

أن يؤمنوا أنفسهم وممتلكاتهم من ناحيتي الشرق والغرب ، فمن ناحية الغرب كان لابد لهم من السيطرة على دروب قيليقية ومنافذها ، مما أوقعهم في نزاع مع آل هيثوم . ومن ناحية الشرق كان لابد لهم من السيطرة على دروب الشام الموصلة من بلاد الشام إلى قيليقية ، مما أوقعهم في نزاع مع إمارة أنطاكية الصليبية ، ثم مع سلطنة المماليك عندما سقطت تلك الإمارة[١] .

ومهما يكن من أمر ، فإنه عند وصول رجال الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق في أواخر القرن الحادى عشر ، رحب بهم الأرمن فى قيليقية وقدموا لهم المساعدات الفعالة ، فأرشدوهم إلى الطريق المؤدى إلى الجزيرة والرها من ناحية ، وإلى الشام وأنطاكيه من ناحية أخرى . وظل الأرمن يقدمون إلى الصليبيين إمدادات ضخمة من المؤن أثناء حصارهم أنطاكية . وفي الوقت نفسه فإن الصليبيين فرحوا بلقاء الأرمن في جنوب شرق آسيا الصغرى . وهكذا وجد الصليبيون في الأرمن عوناً قوياً ووجد الأرمن في الصليبيين حليفاً كبيراً . ولاشك في أن هذه الصداقة التى قامت بين الطرفين في أول الأمر إنما كانت تستهدف مواجهة العدو المشترك ممثلاً في الدولة البيزنطية من ناحية والقوى الإسلامية من ناحية أخرى . هذا إلى أن ظهور الصليبيين على مسرح الشرق الأدني مكن ابن روبين — وهو قنسطنطين الأول (١٠٩٥ — ١٠٩٩) من تدعيم إمارته وتوسيع رقعتها في قيليقيه على حساب البيزنطيين فضلاً عن المسلمين[٢] .

ولكن ما كاد الصليبيون يستقرون في أنطاكية حتى بدأ الاحتكاك بينهم وبين جيرانهم الأرمن في قيليقية ، وخاصة بسبب السياسة العدوانية التوسعية التى دأب أمراء أنطاكية من النورمان على اتباعها ضد القوى المجاورة من المسلمين والمسيحيين سواء . وهنا نشير إلى أن الصليبيين استطاعوا في فترة قصيرة الاستيلاء على ممتلكات الأرمن شرقي آسيا الصغرى ، أعنى خارج قيليقية . ففى سنة ١٠٩٨ انتقلت ملكية الرها إلى الأمير الصليبى بلدوين

---

(١) Setton : op. cit., II, 635.

(٢) Cam. Med. Hist. vol. 4 ; part I ; p. 629.

البولونى بعد مقتل أميرها ثوروس الأرمنى[١]. وفي سنة ١١٠٤ اضطر طاطول الأرمنى صاحب مرعش إلىتركها للأمير الصليبي جوسلين الأول كورتناى[٢]. وفيما بين سنتى ١١١٥ ، ١١١٨ استولى بلدوين دى بورج على ممتلكات دغا باسيل وأبي الغريب الأرمنى صاحب بلدة البيرة على الفرات . ثم استولى الأمير الصليبي بلدوين دى بورج على ممتلكات قنسطنطين الأرمنى صاحب كركر بعد أن سجنه في قلعة سميساط حتى مات . كذلك استولى على الراوندان — قرب قورس — وغيرها من الأراضى التابعة لباكارد الأرمنى[٣]. وإذا كان هذا هو مصير الممتلكات الأرمينية خارج قيليقية ، فإنه كان من الطبيعى أن يحرص أمراء قيليقية من الأرمن على ما تحت أيديهم من بلاد ، وأن ينظروا نظرة حرص شديد إلى القوى الصليبية المجاورة .

ولم تلبث أن دخلت العلاقات بين الأرمن في قيليقية من جهة والقوى الصليبية بالشرق — وخاصة إمارة أنطاكية — من جهة أخرى في دور من العداء المتبادل ، زاد من وقعه عداء الدولة البيزنطية لأمراء قيليقيه والصليبيين جميعاً[٤]. حقيقة أننا نلمس أحياناً أمثلة واضحة للتداخل الحضارى بين الأرمن في قيليقية والصليبيين في الشام ، فضلاً عن التزاوج بين الطرفين ، ولكن طموح بعض أمراء الأرمن في قيليقية — مثل ليوالأول (١١٢٩ — ١١٣٦) — ونشاطهم على حدود إمارة أنطاكيه الصليبية ، أثار مخاوف أمراء أنطاكية الصليبيين ، في الوقت الذى كان هؤلاء الأمراء النورمان بدورهم لايقلون طمعاً ورغبة في التوسع ، حتى على حساب القوى المسيحية المجاورة[٥] . ومن ناحية أخرى فإن الدولة البيزنطية كانت لايمكن أن تتنازل عن قيليقية بتلك السهولة ليستقل بها الأرمن ، فقام بعض الأباطرة البيزنطيين — مثل حنا الثاني (١١١٨ — ١١٤٣) بغزو قيليقية ، واستردوا المدن والمعاقل

(١) Albert d'Aix (Rec. Hist. Cr. Occid). Tome IV, p.p. 354 - 355.
(٢) Runciman : op. cit. vol. II ; p. 40.
(٣) Grousset : Hist. des Croisades, Tome I, p. 454.
(٤) Raoul de Caen ; p. 706.
(٥) Runciman : op. cit. vol. II, p. 32 f.

الرئيسية فيها — مثل طرسوس وأذنه والمصيصة وعين زربه وتل حمدون — من الأرمن . ولكن النفوذ البيزنطى كان لايلبث أن ينكمش وينحسر عن قيليقية ، وتعود سيطرة الأرمن مرة أخرى بعد انسحاب الجيوش الإمبراطورية[١] وفي نفس الوقت لم تنقطع هجمات المسلمين — ممثلين في سلاجقة الروم من ناحية وبني دانشمند من ناحية أخرى — على قيليقيه ، الأمر الذى جعل تلك الإمارة الأرمينية تعيش في القرن الثاني عشر في ظروف بالغة الحرج والصعوبة .

ولم يكد يقترب القرن الثاني عشر من نهايته حتى كان أمراء قيليقية من الأرمن قد أظهروا مهارة في الاحتفاظ بكيانهم وسط العواصف المتضاربة التى أحاطت بهم ، فضلاً عما حفلت به قيليقية تحت حكمهم من تيارات حضارية ذات أهمية بالغة . وقد دفع ذلك ليو الثاني أمير أرمينية الصغرى إلى التطلع إلى التاج ليكون ملكاً متوجاً يتمتع بما للملوك من مكانه وهيبة . وهنا نجد الأمير ليو الثاني يتجه إلى الغرب الأوربي لتحقيق غرضه ، وذلك حتى لايبدو في صورة أقل مكانة من الأمراء الصليبيين بالشرق من ناحية ، وحتى يتجنب أطماع أباطرة القسطنطينية من ناحية أخرى[٢] . وهكذا أخذ ليو الثاني يواصل جهوده عند أقوى رجلين في الغرب ، وهما البابا كالستين الثالث (١١٩١ — ١١٩٨) والإمبراطور فردريك بربروسا (١١٥٢ — ١١٩٠) . ويقال إن فردريك وعد بإعطاء ليو لقب الملكية ، وجاء هذا الوعد في رسالة مدموغة بخاتم الإمبراطورية الذهبي . وما كادت تقترب حملة فردريك بربروسا الصليبية من قيليقية سنة ١١٩٠ حتى أحس ليو الثاني الأرمنى بقرب تحقيق آماله ، فرحب بالإمبراطور ورجاله وبادر بتقديم الهدايا والميرة . ولكن غرق فردريك بربروسا في أحد أنهار قيليقية جاء مخيباً لآماله فضلاً عما كان في ذلك من صدمة عنيفة هزت كيان الحملة الصليبية الثالثة[٣] .

---

(١) Ostrogorsky : op. cit., p. 336.

(٢) Setton : op. cit., vol. II, p. 649.

(٣) Cam. Med. Hist., vol. 4 ; p. 632.

على أن ليو الثاني لم ييأس ، وإنما واصل جهوده في مساعدة الحملة الصليبية الثالثة ، فشاركت قواته في حصار عكا ، وساعد ريتشارد ملك انجلترا في غزو جزيرة قبرس . وكان ذلك النشاط في حد ذاته كفيلاً بإعلاء مكانة الأمير ليو الثاني الأرمني ، وإظهار إخلاصه وتجاوبه مع أهداف المسيحية ، الأمر الذى مكنه من مواصلة جهوده للحصول على التاج الملكى. ويقال إنه بعث سفارة إلى كل من البابا كالستين الثالث والإمبراطور الغربي هنرى السادس لهذا الغرض ، ونجح السفراء في مهمتهم بالغرب ، فأرسل الإمبراطور هنرى السادس سنة ١١٩٧ كبير أمنائه — واسمه كونراد — إلى الشرق ومعه تاجان ، أحدهما لعمورى لوز جنان صاحب قبرس ، والآخر للأمير ليو الثاني صاحب قيليقية ، مما أدى إلى مولد مملكتين مسيحيتين صغيرتين على مسرح الشرق الأدني ، هما مملكة قبرس ومملكة أرمينية الصغرى . وقد توج عمورى ملك قبرس في شهر سبتمبر سنة ١١٩٧ ، في حين توج ليو الثاني ملكاً على أرمينية الصغرى في يناير سنة ١١٩٨ في حفل كبير(١) . وتم التتويج في كنيسة طرسوس بحضور بطريرق اليعاقبة ورئيس الأساقفة الأرثوذكسي ، فضلاً عن عدد كبير من القادة العسكريين والأمراء . وقد بارك ذلك الحفل رئيس الكنيسة الأرمينية — جريجورى السادس — في حين أضفى عليه المندوب الامبراطورى شعار الملكية وسط ابتهاج الأرمن الذين رأوا في ذلك التتويج إحياء لملكيتهم القديمة في أرمينية الكبرى وبعثاً لعظمة تاريخهم السالف .

وقد أشار المؤرخون الأرمن المعاصرون إلى أن الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس الثالث أنجيلوس أرسل عندئذ تاجاً إلى ليو الثاني . ولكن يبدو أن هذا الإجراء من جانب الإمبراطور البيزنطى لم يصحبه حفل تتويج مستقل ، وخاصة أنه كان من تقاليد الإمبراطورية البيزنطية أن ترسل تيجان إلى بعض الأمراء من باب التشريف دون أن يترتب على ذلك رفع منزلة أولئك الأمراء إلى درجة الملوك . وإذا كان أولئك المؤرخون الأرمن قد

(١) Stubbs : op. cit. ; p. 183.

(٢) Kirakos ; (Rec. Hist. Cr. Arm.) Tome 1, p. 424.

اختلفوا في تحديد تاريخ ذلك التشريف الذى أضفاه الامبراطور البيزنطى على ليو الثاني الأرمنى ، فإن الغالب أن الإمبراطور ألكسيوس الثالث أرسل تاجه إلى أمير أرمينية الصغرى بعد أن علم فعلاً أن امبراطور الغرب أرسل تاجاً له ، وذلك اعترافاً من الإمبراطور البيزنطى بسياسة الأمر الواقع من ناحية ، وحرصاً على الاحتفاظ بالخيط الواهى الذى ظل يربط أرمينية الصغرى بالدولة البيزنطية من ناحية أخرى . وقد أرسل ليو الثاني سفارة إلى القسطنطينية لشكر الإمبراطور البيزنطى على التاج الذى أرسله إليه . وثمة حقيقة لاتخفى علينا ، هى أن ليو الثاني الأرمنى كان يفضل أن يكون تتويجه ملكاً عن طريق إمبراطور الغرب ، وذلك حتى يقف على قدم المساواة مع الأمراء الصليبيين بالشرق(١) .

ولاشك في أن ظهور قبرس وأرمينية الصغرى على مسرح الشرق الأدني فى نهاية القرن الثاني عشر في صورة مملكتين مسيحيتين ، أضفى عليهما هيبة كبيرة من جهة ، وألقى عليهما مسئولية ضخمة في متابعة السياسة الصليبية ضد المسلمين من ناحية أخرى . وهنا نلاحظ أنه إذا كانت الدولة البيزنطية من جانبها لم تتنازل في سهولة عن حقها في إقليم قيليقية ، وبالتالى عن تبعية أرمينية الصغرى لها ، فإن المسلمين من جانبهم لم ينسوا أبداً أن هذا الإقليم كان خاضعاً لنفوذهم منذ وقت مبكر ، وأنه حتى بعد استقرار الأرمن فيه ، فإن أمراء أرمينية الصغرى دأبوا على دفع الأموال للسلاجقة رمزاً للخضوع والتبعية(٢) . وهذا هو السر فيأن المسلمين رفضوا الاعتراف بالمكانة الجديدة التى حققها أمراء أرمينية الصغرى بتتويجهم ملوكاً ، وظهر عدم اعترافهم هذا في إصرارهم على عدم الإشارة إلى حاكم أرمينية الصغرى عادة بلفظ « ملك » وإنما اختاروا له غالباً لقب « متملك » ، بمعنى أنهم امتلكوا تلك البلاد قهراً من أصحاب السيادة الشرعيةعليها وهم المسلمون(٣) . وقد عبر

---

(١) Setton : op. cit., vol. 2, p. 648.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٣٠

(٣) ملك الشيء ملكا أيحازه وانفرد بالتصرف فيه ، وتملك الشيء أى امتلكه قهرا (القاموس المحيط) .

شهاب الدين بن العمرى عن هذه المعاني بقوله « وكانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك السلاجقه بالروم ، وعليهم جزية مقررة وطاعة معروفة ، والعمال والشحاني على البلاد من جهة الملك السلجوقي ، حتى ضعفت تلك الدولة (السلجوقية) وسكنت شقاشق تلك الصولة . . . فطمع هذا اللعين (صاحب أرمينية الصغرى) . . . واستولى على هذه البلاد وتملكها ، وتحيف مواريث بنى سلجوق واستهلكها[١] » أما القلقشندى فقد ذكر ما نصه عن أرمينية الصغرى « وإنما كان يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولاً بيد المسلمين ، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم ذكره فملكها من أيدى المسلمين[٢] » أما الألقاب التى اختارها المسلمون لملك أرمينيه الصغرى فعديدة ، منها ابن لاون ، ولاون هنا تحريف للفظ ليون أو ليو أول ملوك أرمينية الصغرى ، فصار كل ملك من ملوكها يعرف بابن لاون . ومن هذه الألقاب أيضاً «متملك سيس » أو « صاحب سيس» وسيس هى العاصمة كذلك أطلق في المراجع العربية على ملك أرمينية الصغرى إسم « التكفور» وهو لقب عام قصد به كل من جلس على عرش تلك المملكة ، مثلما لقب امبراطور الدولة البيزنطية بالأشكرى ، وملك الحبشة بالحطى أو النجاشى[٣] .

وإذا كان ظهور حكام أرمينية الصغرى في صورة ملوك قد جعل منهم قوة مسيحية جديدة واضحة في الشرق الأدني ، فإن ذلك ألقى عليهم مسئوليات كبيرة تجاه المشاركة في السياسة الصليبية منذ أواخر القرن الثاني عشر . ولكن شاءت الظروف أن يتم تتويج ليو الثاني ملكاً على أرمينية الصغرى سنة ١١٩٨ في وقت كان صلاح الدين الأيوبي قد توفي منذ خمس سنوات (١١٩٣) ، وأعقب وفاته تقسيم دولته بين أبنائه وإخوته وبقية أبناء بيته[٤] . وهكذا اقتصر الصدام في النصف الأول من القرن الثالث عشر بين مملكة أرمينية

---

(١) شهاب الدين بن العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٥٥–٥٦
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٣٢
(٣) العمرى : التعريف ، ص ٥٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٣١
(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٢ وما بعدها .

الصغرى من ناحية والقوى الإسلامية المجاورة من ناحية أخرى على ما كان هناك من اشتباكات متكررة مع سلاجقة الروم ، بسبب دأب هؤلاء على غزو قيليقية بين حين وآخر . من ذلك أن قوات ركن الدين سليمان شاه الثاني بن قليج أرسلان (١٢٠٠ — ١٢٠٣) غزت أرمينية الصغرى سنة ١٢٠١ ؛ ولكن الملك ليو الثاني استطاع دفعهم . وفي سنة ١٢٣٣ غزا كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم قيليقية ، وفرض جزية على الأرمن[١] وتكرر غزو السلاجقة لقيليقية سنة ١٢٤٥ — سنة ١٢٤٦ . وفي تلك الأثناء لم تحدث اشتباكات بين أرمينية الصغرى من ناحية ، والمسلمين في شمال الشام من ناحية أخرى ، إلا ما كان من أمر اشتباك الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين — وهو الذى أخذ ملك حلب وجميع أعمالها وشمال الشام بعد وفاة أبيه — مع ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى بسبب إمارة أنطاكية . ذلك أنه حدث بعد وفاة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية سنة ١٢٠١ أن دب الخلاف بين أرمينية الصغرى وأنطاكية بسبب طمع الملك ليو الثاني الأرمنى فى بسط سيادته على إمارة أنطاكية الصليبية عن طريق الوراثة . وكان أن هاجم ليو الثاني إمارة أنطاكية سنة ١٢٠٣ ، ولكن الظاهر غازى الأيوبي صاحب حلب أسرع لنجدة حلفائه في أنطاكية « ففر ابن لاون »[٢] . ولم يلبث أن تجدد الصدام بين ليو الثاني والظاهر غازى صاحب حلب في أواخر سنة ١٢٠٥ عندما قام الأول بهجوم مباغت على دربساك . ومع أنه فشل في الإستيلاء على قلعتها ، إلا أنه أنزل بالمسلمين خسائر كبيرة ، كما خرب الجهات المجاورة لها[٣] . وكان أن خرج الظاهر غازى بنفسه على رأس قوات جديدة سنة ١٢٠٦ للإنتقام من ليو الأرمنى ، وشاركت قوات أنطاكية الجيوش الحلبية في حملتها ، الأمر الذى جعل ليو الثاني يتراجع بسرعة أمام تفوق أعدائه ، ووافق على عقد هدنة لمدة ثمان سنوات[٤] . ولكن حدث سنة ١٢٠٨—١٢٠٩

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٢٤٨

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٤٠ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦٣

(٣) ابن الأثير: الكامل ، ج ١٢ ص ١٠٠ ، حوادث سنة ٦٠٢ هـ

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٧٠

Setton : op. cit., vol. 2, p. 649 &

أن نقض كيخسرو الأول سلطان سلاجقة الروم الصلح المبرم مع ليو الثاني الأرمني ، واشترك مع الظاهر غازى صاحب حلب في هجوم مفاجىء على أرمينية الصغرى أدى إلى استيلاء المسلمين على حصن غرقوس قرب مرعش ، كما « فتح قلاعاً أخرى وضربها »(١) .

على أنه إذا كانت إمارة حلب قد انفردت — بحكم موقعها في شمال الشام — بمواجهة قوة أرمينية الصغرى في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فإن الموقف اختلف في النصف الثاني من ذلك القرن . ذلك أن قيام دولة المماليك سنة ١٢٥٠ جاء مصحوباً — بعد سنوات قليلة — بتوحيد مصر والشام تحت قيادة سياسية واحدة ممثلة في سلطنة المماليك بالقاهرة ، ومن ثم كان على مملكة أرمينية الصغرى أن تواجه السياسة القوية التى رسمتها لنفسها سلطنة المماليك ، والتى استهدفت الجهاد ضد المغول والصليبيين جميعاً ، واقتلاع جذور البقايا الصليبية تماماً من منطقة الشرق الأدنى(٢) . وإذا كان سلاطين المماليك قد نجحوا في القضاء على آخر البقايا الصليبية بالشام في نهاية القرن الثالث عشر ، فإنه كان من غير المعقول أن يغفل المماليك عن أمر أرمينية الصغرى وقبرس ، وهما المملكتان اللتان تمخضت عنهما الحركة الصليبية ، ولم يظهرا في صورة مملكتين إلا نتيجة للتيار الصليبي في أواخر القرن الثاني عشر ، فضلاً عن جهودهما التى لم ينساها المسلمون في تدعيم مركز القوى الصليبية في بلاد الشام منذ بداية القرن الثالث عشر . وكلما ضعف أمر الصليبيين بالشام وانكمش سلطانهم كلما ازداد العبء الملقى على كاهل هاتين المملكتين للنهوض برسالة الحركة الصليبية ، الأمر الذى جعل الصدام لا مفر منه بين سلطنة المماليك من ناحية ومملكتى أرمينية الصغرى وقبرس من ناحية أخرى ، وهو الصدام الذى لم ينته إلا بسقوط مملكة أرمينية الصغرى في القرن الرابع عشر وخضوع مملكة قبرس لسلطنة المماليك في القرن الخامس عشر(٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٨٧

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى ، ص ٥٢

(٣) **Mas Latrie : Des Relations Politique et Commerciales d'l'Asie Mineure avec l'ile de Chypre sous le Regne de la Maison de Lusignan ; p.p. 120 - 122.**

والواقع أنه ثمة عوامل معينة جعلت سلاطين المماليك في مصر يعتبرون ملوك أرمينيه الصغرى « أخبث عدو للإسلام » على حد تعبير العمرى[١]. ويأتي على رأس هذه العوامل اثنان ، أولهما موقف ملوك أرمينية الصغرى من تتار فارس ، وثانيهما السياسة الإقتصادية لملوك أرمينية الصغرى .

أما عن موقف أرمينية الصغرى من تتار فارس فهو موقف خطير ، ترك رد فعل عنيف في قلوب المسلمين في الشرق الأدني جميعاً . ذلك أن ملوك أرمينية الصغرى ما كادوا يحسون باقتراب التتار من منطقة الشرق الأدني حتى هللوا لهم ورأوا فيهم القوة الضاربة الكبرى التى تستطيع أن تقضى على الإسلام والمسلمين في المنطقة وأن تحمى كيان القوى المسيحية الصغرى فيها. ولايخفى علينا أن مغول فارس كانوا في ذلك الدور الأول من تاريخهم في الشرق الأوسط مازالوا وثنيين ، الأمر الذى جعلهم يبدون في نظر المسيحيين عموماً وفي نظر البابوية بوجه خاص في صورة المادة الخام التى يسهل تشكيلها في القالب المسيحى . وزاد من قوة هذا الأمل ظهور بعض تيارات واتجاهات مسيحية — ولو خفيفة — بين صفوف مغول فارس . من ذلك أن دوقوزخاتون زوجة هولاكو كانت مسيحية نسطورية « فعملت دائماً على مؤازرة المسيحيين وفي عهدها قوى حال تلك الطائفة » هذا إلى أن أم هولاكو نفسها — وهى سيورقوقيتى — كانت نسطورية أيضاً[٢] .

وإذا كان ليو الثاني ملك أرمينيه الصغرى قد توفي سنة ١٢١٩ ، فإن خليفته هيثوم الأول وضع دعائم سياسية خارجية جديدة ، هى إحلال التحالف مع المغول محل التحالف مع الغرب الأوربي بعد أن ثبت انشغال الغرب بمشاكله الخاصة عن المساهمة الجدية في الحروب الصليبية ، مما أدى إلى فتور تيار الحركة الصليبية وانحرافها عن وجهتها الصحيحة منذ أوائل القرن الثالث عشر . وظهرت سياسة هيثوم عندما لجأت إلى بلاطه زوجة كيخسرو سلطان سلاجقة الروم وابنته ، فراراً من بايجو القائد المغولى الذى أرسله

---

(١) العمرى : التعريف ، ص ٥٦
(٢) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ص ٢٢٠

هولاكو لمهاجمة السلاجقة والاستيلاء على قونية . وكانت الشهامة تتطلب من هيثوم ملك أرمينية الصغرى حماية امرأتين لجأتا إلى بلاطه وقت الشدة ولكنه ضرب بقواعد العرف والأخلاق عرض الحائط ، واختار أن يتقرب إلى المغول على حساب المثل والفضيلة ، فسلم زوجة الحاكم المسلم وابنته إلى بايجو(١) .

ولم يكتف هيثوم الأول باسترضاء هولاكو ورجاله ، وإنما لجأ إلى الاتصال مباشرة بخاقان المغول الأعظم كيوك خان في قراقورم في جوف آسيا . ولهذا السبب بادر هيثوم بإرسال أخيه سمباد في مهمة رسمية إلى قراقورم ، فغادر سمباد قيليقية سنة ١٢٤٧ وعاد إليها سنة ١٢٥٠ ومعه شهادة ضمان من المغول ببقاء مملكة أرمينية الصغرى مع إعادة القلاع التى انتزعها السلاجقة منها . ويبدو أن نجاح هذه السفارة شجع هيثوم على الخروج بنفسه سنة ١٢٥٣ لزيارة خاقان المغول الجديد — منكوخان — في قراقورم . وكان ملك أرمينية الصغرى أول حاكم رسمى من منطقة الشرق الأوسط يذهب بنفسه مختاراً إلى بلاط الخاقان الأعظم ، ولذا استقبل في قراقورم بترحاب كبير وحفاوة بالغة . وانتهى الأمر بأن أكد منكوخان الضمانات والوعود التى قدمها سلفة لسمباد ، وزاد على ذلك إعفاء الكنائس والأديرة الأرمينية داخل دولة المغول من الضرائب(٢). على أن هيثوم كان يطمع في أكثر من ذلك . لقد كان يرجو الزج بالمغول في تيار الحروب الصليبية ، واتخاذهم حليفاً للمسيحيين في حركتهم الكبرى لطرد المسلمين من الشام .

ومهما يكن من أمر ، فإن الملك هيثوم ملك أرمينية الصغرى عاد إلى بلاده سنة ١٢٥٦ مزوداً بالوعود الجميلة ، محملاً بالهدايا النفيسة . ولم ينس هيثوم أصله الأرمنى ، فمر في طريق عودته بالوطن الأم — أرمينية الكبرى — حيث استقبله الأساقفة ومقدمو الأديرة والأمراء وعامة الأهالى الأرمن بالحفاوة والترحاب . وكانت هذه أول مرة يزور فيها أحد حكام قيليقية من الأرمن الوطن الأم في الشرق .

---

(١) Setton : op. cit., vol. 2, p. 652.

(٢) Hetum : La Flor des Estoires de la terre d'Orient. (Rec. Hist. Cr. Doc. Arm. ; Tome 2 ; p.p. 163 - 168).

ولم يكد الملك هيثوم يعود إلى بلاده حتى شرع في تنفيذ خطته الأساسية الخاصة بتكوين جبهة من المسيحيين والمغول ضد المسلمين، فاتصل بأمراء الصليبيين بالشام داعياً إياهم للمشاركة في مشروعه الكبير ، ولكنه لم يجد استجابة سوى من بوهيموند السادس صاحب أنطاكية[1]. ومن الواضح أن الصليبيين في بلاد الشام كانوا عندئذ قد بلغوا درجة الجمود ، بعد أن ذبلت الحماسة الصليبية في غرب أوربا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وتضاءلت الإمدادات البشرية والمادية التي كانت تصل من الغرب ، وهي الإمدادات التي كانت تستثير حماستهم بين حين وآخر وتجدد نشاطهم ، وتحيي فيهم الروح الصليبية بكل معانيها . ومع ذلك فإن هيثوم ظل على وفائه للمغول ، فقام بأكثر من زيارة لإيلخانية مغول فارس ، وقدم كل مساعدة — حربية وغير حربية — للمغول ، سواء بناء على طلب المغول أنفسهم ، أو تطوعاً منه بدافع الانتقام من جيرانه المسلمين .

وجدير بالملاحظة أنه عندما غزا هولاكو العراق ، واستولى على بغداد حيث قضى على الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ ، كان جيشه يضم نسبة كبيرة من الأرمن ، فضلاً عن بعض المسيحيين الشرقيين من النساطرة وغيرهم ؛ وهؤلاء كانوا لايقلون عنفاً عن المغول في تصرفاتهم تجاه المسلمين[2]. وبعد أن فرغ هولاكو من أمر العراق ، وأخذ يتطلع إلى الشام ، اشترك الملك هيثوم ملك أرمينية الصغرى في وضع الخطة لغزو الشام . وكان أن طلب هولاكو من حليفه الأرمني أن يلتقي به على رأس جيش عند الرها « حتى يذهب معه إلى بيت المقدس ويخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين »[3] وفعلاً اشترك هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى بنفسه وشخصه في الغزو المغولي للشام أوائل سنة ١٢٥٩ ، فاستولى المغول على حلب في أوائل العام التالي ، وأسروا من أهلها عدداً كبيراً قدره المقريزي بمائة ألف[4]،

---

(١) Iorga : L'Armerie Cilicienne, p. 126.

(٢) Grousset : op. cit., Tome 3 ; p.p. 544 - 576.

(٣) Hayton : La Flor des Estoires d'Orient (Doc. Arm.), II, p. 170.

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٢

وهؤلاء حمل بعضهم وبيعوا في أسواق الرقيق في أرمينية الصغرى بالذات[١]. ولم يتعرض المغول لكنيسة اليعاقبة في حلب ، في حين حرص هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى على إحراق جامع حلب بيده ! ![٢] . ثم زحف المغول يصحبهم هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى — على دمشق ، واستولوا عليها ؛ وعندئذ طلب الملك هيثوم الأرمني من كتبغا قائد جيوش هولاكو إغلاق مساجد دمشق وتحويل بعضها إلى كنائس ، ففعل ذلك ضارباً عرض الحائط باستعطافات المسلمين [٣] . . .

هكذا كان موقف هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى من المسلمين في محنة الغزو المغولي للعراق والشام . وكان من الطبيعي أن تستثير سياسة ملوك الأرمن شعور المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى ، وهو الشعور الذى عبر عنه العمرى بقوله عن الأرمن في قيليقيه إنهم « أخبث عدو للإسلام » . ثم إن ملوك أرمينية الصغرى بعد هيثوم لم يتخلوا عن سياسة مؤازرة مغول فارس للنيل من المسلمين كلما سنحت لهم الفرصة بذلك . من ذلك أن ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى (١٢٧٠ - ١٢٨٩) شارك مغول فارس عند غزوهم بلاد الشام سنة ١٢٨١ على أيام السلطان المنصور قلاون . كذلك نسمع عن هيثوم الثاني ملك أرمينية الصغرى (١٢٨٩ — ١٢٩٣) أنه ظل متعلقاً بأهداب التحالف مع المغول ، وقام من أجل هذا الغرض برحلة لزيارة بايدوا إيلخان مغول فارس . وبينما كان هيثوم الثاني في مراغة ، استولى غازان على السلطة من بايدوا فأعلن هيثوم ولاءه لغازان الذى أكد له حماية الكنائس المسيحية ، كما وعده بالمعونة العسكرية[٤] . ولعل هذه السياسة التى التزم بها ملوك أرمينية الصغرى تجاه المغول ، هى التى جعلت الكتاب المسلمين المعاصرين يصفون ملوك أرمينية الصغرى بأنهم أذناب لبيت هولاكو ، فيقول عنهم العمرى « وللملوك البيت الهولاكوهى عليهم حكم قاهر ، وفيهم أمر نافذ »[٥] .

(١) D'OHsson : Histoire des Mongols, III, p.p. 319 - 320.

(٢) Grousset : op. cit., Tome 3, p. 583.

(٣) D'OHsson : op. cit. III, p. 325.

(٤) Setton : op. cit., II, p. 656.

(٥) العمرى : التعريف ، ص ٥٦ ، القلقشندى ، ج ٨ ص ٣٠

هذا عن العامل الأول الذى استثار سلاطين المماليك في مصر والشام ضد أرمينية الصغرى وملوكها ، وجعلهم يكيلون لها الضربة تلو الأخرى حتى قضوا عليها . أما العامل الثاني ، فكان لايقل خطورة في نظر سلطنة المماليك ، وأعنى به العامل الاقتصادى . ذلك أنه إذا كانت سلطنة المماليك قد بنت قوتها وعظمتها على أساس فكرة احتكار الجزء الأكبر من النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، فإنه كان من الطبيعى أن تحقد تلك السلطنة على أية قوة أخرى تحاول أن تجتذب من سلطنة المماليك ذلك النشاط التجارى الواسع ، الأمر الذى يؤثر في دخل دولة المماليك وبالتالى في قوتها . وهنا نلاحظ أن اندفاعة المغول تجاه الشرق الأوسط في النصف الأول من القرن الثالث عشر قد صحبها من حوادث العنف وعدم الاستقرار ما هدد طرق التجارة البرية عبر آسيا إلى الغرب ، الأمر الذى ساعد على انتعاش طريق البحر الأحمر ومصر، وهو الطريق الوحيد الذى بقى بعيداً عن سيطرة المغول . ولكن باستقرار دولة مغول فارس ، أدرك حكامها مدى ما يمكن أن يعود عليهم من وراء تنشيط التجارة عبر بلادهم ؛ فلجأت الحكومة الإيلخانية — وخاصة في عهد غازان (١٢٩٥ — ١٣٠٤) — إلى تأمين طرق التجارة ، والضرب بشدة على أيدى قطاع الطرق والعابثين بها ، وتخفيض الضرائب لتشجيع التجارة عبر أراضيها بين الشرق والغرب(١) . ونتج عن هذا انتعاش طريق تبريز — أرمينية الصغرى ، حيث غدا ميناء إياس على البحر المتوسط مركزاً لنشاط اقتصادى واسع . ولم يلبث أن أحس سلاطين المماليك في مصر بمنافسة أرمينيه الصغرى وميناءها أياس ، وخاصة بعد أن لجأ ملوك أرمينية الصغرى إلى تخفيض الضريبة المفروضة على البضائع المارة ببلادهم من ٤ في المائة إلى ٢ في المائة فقط ،(٢) الأمر الذى جعل تجار جنوا والبندقية وبيزا وموسيليا ، وغيرهم من تجار الغرب الأوربي ، يهرعون إلى ميناء أياس في أرمينية الصغرى لابتياع

---

(١) Behrnauer : Memoires sur les Institions de Police chez les Arabes. (J. As. 5ém Serie, Tome 15, p.p. 490-491 — Paris, 1860).

(٢) Heyd : Hist. du Commerce du Levant au Moyen Age, Tome 2, p. 86.

ما يحتاجون إليه من حاصلات الشرق . وقد زار الرحالة الشهير ماركو بولو ميناء أياس في أواخر القرن الثالث عشر ، فأدهشه ذلك النشاط التجارى الضخم في ذلك الميناء ، ووفرة ما كان فيه من التوابل والمنسوجات والأقمشة الحريرية والصوفية الموشاة بالذهب وغيرها من حاصلات الشرق ، وذكر أنه شاهد كثيراً من التجار الأوربيين من مختلف الجنسيات وقد هرعوا لابتياع ما يحتاجون إليه من بضائع(١) . وزاد من نشاط ميناء أياس في أرمينيه الصغرى ما لجأت إليه البابوية بعد سقوط عكا وطرد آخر البقايا الصليبية من الشام في أواخر القرن الثالث عشر من محاولة فرض حصار اقتصادى على مصر ، واصدار المراسيم البابوية لمنع التجار الأوربيين من التردد على موانى مصر والشام(٢). وبذلك لم يبق أمام التجار الأوربيين الراغبين في تنفيذ تعاليم البابوية سوى ميناء أياس في أرمينية الصغرى ، وهو الميناء المسيحى الرئيسى في الشرق الذى يتصل برياً بطرق التجارة الآسيوية ، والذى يستطيع التاجر الأوربي أن يبتاع منه كل ما يرغب فيه من الحاصلات الشرقية حقيقة إن كثيراً من التجار الإيطاليين ضربوا بالمراسيم البابوية عرض الحائط ، واستمروا يتاجرون مع دولة المماليك ، ولكن التسهيلات التى منحها ملوك أرمينية الصغرى للتجار الأوربيين كانت كفيلة بأن تؤثر تأثيراً محسوساً في أوضاع سلطنة المماليك ، الأمر الذى أثار السلاطين بالقاهرة وجعلهم يقررون ضرورة القضاء على تلك الدولة المنافسة لهم في تجارة الشرق . وكانت أخبار النشاط التجارى لأرمينية الصغرى تصل تباعاً لسلاطين المماليك في القاهرة ، وأشار بعض الكتاب المعاصرين إلى القوافل الضخمة التى كانت تمر بأرمينية الصغرى « موسوقة سكراً وصابوناً وفستقا ورصاصاً وقطناً »(٣) .

وفي الوقت الذى حرصت دولة أرمينية الصغرى على مضاربة سلطنة المماليك في نشاطها التجارى ، لجأت أيضاً إلى تعويق التجارة البرية الواصلة

---

(١) **Marco Polo : The Description of the World ; p. 94. (ed. A. C. Moule and Paul Pelliot).**

(٢) **Kammerer : La Mer Rouge, Tome 1, partie 2, p. 151.**

(٣) محيى الدين عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ١

من آسيا إلى مصر عن طريق البر . من ذلك ما يرويه أبو المحاسن من أن جماعة من التجار خرجوا سنة ١٢٦٧ من بلاد العجم قاصدين مصر ، فلما مروا بسيس منعهم صاحبها (هيثوم) من العبور وأرسل بشأنهم إلى أبغا حاكم مغول فارس ، فطلب منه أبغا الحوطة عليهم وإرسالهم إليه . وعندما بلغ الخبر السلطان الظاهر بيبرس ، بادر بإرسال تعليماته إلى نائب حلب ، يطلب منه الاتصال بصاحب سيس ، وإنذاره بأنه إذا تعرض لهؤلاء التجار « بشيء يساوي درهماً واحداً أخذت عوضه مراراً »(١).

وهكذا ظهر أكثر من عامل ليحرك سلطنة المماليك ضد أرمينية الصغرى. وأخذ ملوك أرمينية يجنون بسرعة ثمار سياستهم ، فاستعانوا بالمغول ليتشفوا في المسلمين بالشام ، وجمعوا المال من وراء منافسة دولة المماليك في النشاط التجاري. ولكن سرعان ما أثبتت الأيام أن ملوك أرمينية الصغرى راهنوا على الحصان الخاسر ، وأنه عليهم أن يدفعوا ثمناً باهظاً مقابل المكاسب السريعة التي حصلوا عليها . ذلك أن الهزيمة التي حلت بالمغول في عين جالوت ١٢٦٠ هزت مكانة المغول وهيبتهم في الشرق الأدنى ، كما ترتب عليها إحياء الوحدة بين مصر والشام في ظل سلطنة المماليك . وأخيراً أدرك هيثوم ملك أرمينية الصغرى أنه على وشك أن يجنى ثمار ما قدمت يداه ، فحاول أن يتراجع بسرعة في سياسته ، وأرسل سفراءه إلى السلطان الظاهر بيبرس يسترضيه ، ولكن مطالب سلطنة المماليك كانت قاسية بالنسبة لملك أرمينية ، فلم يجد مفراً من الرحيل إلى تبريز طالباً النجدة السريعة من سادته المغول .

على أن السلطان الظاهر بيبرس كان أسرع إلى الحركة ، فلم يكتف بتحريض نائبه في حلب — وهو الأمير عز الدين أيدمر الشهابي — بمناوشة « أهل سيس » وأسر بعض الأرمن(٢) ، وإنما قرر بيبرس أن ينتهز فرصة غياب الملك هيثوم عن بلاده يستجدى معونة المغول ، وقرر مهاجمة بلاده .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨١
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧٦

وفعلاً رحل الظاهر بيبرس إلى دمشق سنة ١٢٦٦ للإشراف من هناك على الحملة التي أزمع توجيهها إلى أرمينية الصغرى . ويبدو أن الأرمن أحسوا بنية السلطان تجاههم ، فبادروا بإرسال رسلهم بهدية إلى الظاهر بيبرس — وهو في صفد في طريقه إلى دمشق — ولكنه « لم يقبلها ولا سمع رسالتهم »[(١)]

واختار السلطان الظاهر بيبرس الملك المنصور الثاني محمد صاحب حماه مقدماً على الحملة ، ورافقه الأمير عز الدين أوغان والأمير قلاون ، فاتجهوا جميعاً على رأس الجيش إلى حصن دربساك ، ومنه دخلوا الدربند إلى قيليقية . وكان الملك هيثوم قد أقام سلسلة من التحصينات لحماية بلاده من أية هجمات تأتي من ناحية الشام ، فأقام « على رءوس الجبال أبراجاً ». ولما كان هيثوم نفسه متغيباً عن بلاده وقت الغزو المماليكى ، فإن الأرمن جمعوا صفوفهم تحت زعامة أخيه سمباد ، وشاركه ثوروس وليون —ابنا هيثوم — في محاولة لصد الخطر[(٢)]. ولكن الأرمن لم يستطيعوا الصمود أمام فرسان المماليك ، فقتل الأمير ثوروس وأسر أخوه ليو ، وابن عمه باسيل بن سمباد . ولم يلبث أن تمزق جيش الأرمن ، فاقتفى المماليك أثرهم وهم يقتلون ويأسرون ويحرقون . واستولى المماليك على قلعة لفرسان الداوية في قيليقية إسمها قلعة العامدين ، فقتل وأسر من فيها ، وأحرقت القلعة[(٣)] . ثم دخل المماليك سيس — عاصمة أرمينية الصغرى — « فأخربوها وجعلوا عاليها سافلها ، وأقاموا أياماً يحرقون ويقتلون ويأسرون » وفي الوقت الذى بقى قائد الحملة — المنصور محمد صاحب حماه — في سيس اتجه الأمير أوغان إلى جهة الروم ، والأمير قلاون إلى المصيصة وأذنه وأياس وطرسوس « فقتلوا وأسروا وهدموا عدة قلاع وحرقوا » ثم اجتمع الأمراء في سيس « ومعهم من الغنائم ما لا يعد ولا يحصى ، حتى بيع الرأس من البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه[(٤)] »

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٣٩

(٢) Setton : op. cit., vol. 2, p. 654.

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر .
(Rec. Hist. Cr. Or. ; I, p. 151).

(٤) المقريزى : السلوك ، ١ ص ٥٥٢

وأخيراً عاد الغزاة إلى الشام ومعهم الأسرى والغنائم ، فأكرمهم السلطان الظاهر بيبرس ، وخلع على الأمراء وأنعم على الجنود ، ثم اتجه السلطان إلى مصر في العام التالى – سنة ١٢٦٧ – ومعه ليو ابن الملك هيثوم أسيراً[١] . والواقع إن الملك هيثوم عاد إلى بلاده ليجدها تئن أنين الموجوع ، وعندئذ فقط أدرك هيثوم خطأ سياسته ، وإن كان ذلك جاء بعد فوات الأوان . وكان من العسير على هيثوم أن يستمر في الحكم بعد ذلك ، وسط مظاهر الدمار والخراب التى حلت ببلاده ؛ ولكنه انتظر الإفراج عن إبنه الأسير ليعتزل الحياة السياسية بعد ذلك .

و يبدو أن المفاوضات طالت بين هيثوم من ناحية والظاهر بيبرس من ناحية أخرى من أجل إطلاق سراح الأمير ليو . ففى سنة ١٢٦٧ أرسل هيثوم أخاه فاساك « يشفع في ولده للسلطان » ؛ واستمر هيثوم « يسأل في إطلاق ولده ليفون (ليو) ويعرض في فدائه الأموال والقلاع »[٢] ولكن شروط بيبرس كانت قاسية إذ طلب مقابل ذلك إطلاق سراح سنقر الأشقر الذى كان المغول قد أسروه في حلب ، كما اشترط رد القلاع التى كان الأرمن قد أخذوها من المسلمين ،وهى بهسناودربساكومرزبان ورعبان وشيح الحديد[٣]. وعندئذ طلب هيثوم إعطاءه مهلة سنة ، حتى يرجع إلى إيلخان مغول فارس ليطلب منه إطلاق الأمير سنقر. ولما أجاب المغول هيثوم إلى طلبه بإطلاق الأمير سنقر الأشقر ، أرسل رده إلى السلطان بيبرس بذلك ، ولكنه غير رأيه في تسليم القلاع السابقة ، فرد الظاهر بيبرس على الملك هيثوم يقول « إذا كنت تقسو على ولدك وولى عهدك فأنا أقسو على صديق ما بينى وبينه نسب ، ويكون الرجوع منك لا منى ؛ ونحن خلف كتابنا ، فمهما شئت افعل بسنقر الأشقر ! ! ». وهكذا اضطر هيثوم تحت ضغط عاطفة الأبوة

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ؛ ج ١ ص ١٥٢ وما بعدها (Paris, 1932).

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ورقة ٩١ (مخطوط) العينى : (Rec. Hist. Cr. Or. II ; p.p. 235 - 236).

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر .(Rec. Hist. Cr. Or. I ; p. 153)

إلى الإذعان ، فتقرر الصلح على أن يرد الأرمن بهسنا ودربساك وكل ما استولوا عليه من بلاد الإسلام ، مع إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر ، مقابل إطلاق الأمير ليو وابن عمه . وبعد أن كتبت الهدنة بانطاكية ، سافر الأمير بلبان الرومى الدوادار والصدر فتح الدين بن القيسراني كاتب الدرج لاستحلاف هيثوم ، ثم حلف الأمير ليو على النسخة التى حاف عليها أبوه « وهو قائم مكشوف الرأس » وعندئذ سمح له بالسفر إلى بلاده ، في حين عاد الأمير سنقر الأشقر إلى الشام [١] .

وفي خلال هذه الأحداث ، ظل الأرمن متعلقين بمغول فارس ، بوصفهم القوة القريبة التى يمكن أن تحميهم من ضغط المماليك . وثمة إشارات في المراجع تشير إلى استمرار الرابطة بين إيلخانات فارس وملوك أرمينية الصغرى ، منها أن رسل المغول إلى المماليك لمحاولة عقد صلح بين الطرفين كانت غالباً تأتي إلى الشام ومصر مصحوبة « بجماعة من أصحاب سيس [٢] » . على أن السلطان الظاهر بيبرس استمر يقف موقفاً صلباً من مغول فارس وأرمن قيليقيه جميعاً . وزاد موقف أرمينيه الصغرى سوءاً عندما استولت جيوش الظاهر بيبرس على أنطاكية — كبرى الإمارات الصليبية في شمال الشام — سنة ١٢٦٨ . ولم يكن في استطاعة فرسان الداوية عندئذ أن يحتفظوا بقلاعهم في إقليم أنطاكية ، بعد سقوط مدينة أنطاكية نفسها فى قبضة المماليك ، فاستسلمت بغراس دون مقاومة ، وهرب من كان فيها من الداوية [٣] . وبذلك انقطعت صلة الصليبيين في طرابلس وعكا بالأرمن في قيليقية ، وتبخرت إلى الأبد فكرة إمكان تحقيق تحالف بين أنطاكية وأرمينية الصغرى والمغول من أجل ضرب العدو المشترك ، ممثلاً في المسلمين [٤] .

والواقع إن أرمينية الصغرى كانت في موقف لاتحسد عليه . وخير صورة لذلك الموقف ما ذكره الرحالة ماركوبولو في أواخر القرن الثالث عشر

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٦٩ — ٥٧٠
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٤
(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، حوادث سنة ٦٦٦هـ .
(٤) Grousset : op. cit., III, p.p. 642 - 643.

من أنها كانت الفريسة الحائرة بين أسد المغول ونمر المماليك وذئب الأتراك وأفعى قراصنة البحر[١] . وفي الوقت الذى أحاط المسلمون بقيليقية إحاطة السوار بالمعصم ، تلفت الأرمن حولهم فلم يجدوا خيطاً يمكن أن يتشبثوا به سوى مغول فارس . وهكذا اصطحب هيثوم ابنه ليو إلى بلاط أبغا — إيلخان مغول فارس — ليقدمه له .وبعد ذلك اعتزل هيثوم الحكم فعلاً سنة ١٢٦٩ ، وقضى بقية حياته منزوياً في أحد الأديرة ، فخلفه إبنه ليو الثالث (١٢٦٩ — ١٢٨٩) الذى اتجه مرة أخرى إلى بلاط إيلخان مغول فارس يطلب منه الاعتراف به ملكاً على أرمينية الصغرى . ويبدو أن ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى كان متعلقاً بأحلام أبيه بإمكان عمل تحالف بين المغول والقوى المسيحية لطرد المسلمين من الشام ، فأرسل عدة نداءات إلى الغرب الأوربي لتحقيق هذا الأمر . ومن جهة أخرى فإن أبغا — إيلخان مغول فارس — أرسل رسلاً من قبله إلى البابوية ، فضلاً عن إدوارد الأول ملك انجلترا ، للقيام بعمل مشترك ضد المماليك . ولكن جميع هذه الآمال العريضة لم يقدر لها النجاح ، لأن الحقيقة الكبرى هى أن الظروف التى أحاطت بمختلف أطراف ذلك الحلف المزعوم في أواخر القرن الثالث عشر حالت دون تنفيذ ذلك المشروع[٢] . فالقوى المسيحية في الغرب الأوربي كانت غارقة في مشاكلها الخاصة التي ظهرت في مرحلة التحول الفكرى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى في أواخر العصور الوسطى . والمغول وقد انكسرت حدة اندفاعتهم على صخرة عين جالوت كادت تتوقف حركتهم التوسعية في الشرق الأدني ، وصحب ذلك تفتت دولتهم الكبرى إلى دويلات صغيرة دب بينها النزاع والشقاق ، مما جعل إيلخانية مغول فارس عاجزة عن القيام بأى مجهود حربي جديد . هذا في الوقت الذى تعرضت دولة مغول فارس لتيارات جديدة — إسلامية وغير إسلامية — أخذت تثير نوعاً من الصراع الداخلى ، مما كان له أثره في السياسة الخارجية لتلك الدولة .

---

(١) **Marco Polo : op. cit., I, p. 42.**

(٢) **Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages ; ps. 23, 45, 54.**

وهكذا لم يستجب الغرب الأوربي لنداء المغول والأرمن جميعاً ، ولانجد في المراجع المعاصرة إشارة إلى وصول نجدة من الغرب ، سوى ماحدث سنة ١٢٧٠ (٦٦٨ هـ) من أنه « ورد الخبر بأن جماعة من الفرنج خرجوا من الغرب وبعثوا إلى أبغا بن هولاكو بأنهم واصلون لمواعدته من جهة سيس في سفن كثيرة . فبعث الله على تلك السفن ريحاً أتلفت عدة منهم ، ولم يسمع بعدها لمن بقى في الأخرى خبر »[١] ويضيف النويرى إلى هذه الحقيقة أن الفرنج الذين خرجوا من الغرب في تلك السنة كانوا من عندملك أرغونة[٢] . وفيما عدا ذلك لانسمع إلا عن مشروع أجوف وضعه أحد رجال ملك فرنسا فيلب الرابع (١٢٨٥ — ١٣١٤) وتبنت البابوية هذا المشروع ؛ إذ أرسل البابا مندوباً لاستشارة هيثوم ملك أرمينية الصغرى السابق — وكان معتزلاً الحياة في أحد أديرة فرنسا — فأوصى هيثوم بإعداد حملتين لمهاجمة المسلمين ، إحداهما بحرية تتخذ قبرس وشواطئ أرمينية الصغرى قاعدة لها ، والأخرى برية تتعاون مع المغول والأرمن في قيليقية . ولكن شيئاً من هذا المشروع لم يتحقق[٣]. على أننا نستطيع أن نخرج من هذا كله بحقيقةهامة هى أن المماليك أدركوا تماماً الدور الذى يقوم به المغول من ناحية و« صاحب سيس » من ناحية أخرى في تأليب الغرب الأوربي ، في الوقت الذى اتضح لهم أن صاحب سيس لم يستطع الحصول على ماكان ينشده من معونة . وهكذا صار المماليك أحراراً في العمل على تقويض بقايا البناء الصليبي في الشام ، فضلاً عن مهاجمة الممالك المسيحية التى تمخضت عنها الحركة الصليبية في الشرق الأدنى وهما مملكة قبرس وأرمينية الصغرى .

وربما أدى انشغال السلطان الظاهر بيبرس بالتمكين لنفسه في الداخل من ناحية ، ثم بحروبه العديدة ضد التتار والصليبيين والنوبة من ناحية أخرى . . . ربما أدى ذلك إلى إعطاء ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى فرصة قصيرة يلتقط فيها أنفاسه ويحاول إصلاح الأوضاع السيئة التى غدت فيها بلاده . ذلك أن

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٨٤

(٢) النويرى : نهايةالأرب ، ج ٢٨ ورقة ١٠٠ (مخطوط) .

(٣) Atiya : op. cit., p.p. 53 - 73.

الأمر لم يقتصر على ما ألحقته جيوش المماليك من دمار بأرمينية الصغرى في حملة سنة ١٢٦٦ ، بل تعرضت قيليقية سنة ١٢٦٩ لزلزال رهيب خرب « عدة قلاع وهلك كثير من الناس ، حتى سال النهر دماً ، وتلفت عدة جهات»[١] . وهكذا كان على ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى أن يعمل بسرعة لإصلاح ما أفسده المماليك من ناحية وما خربته الزلازل من ناحية أخرى . ونجح ليو الثالث فعلاً في إعادة بناء إياس حتى غدت مرة أخرى مركزاً تجارياً نشيطاً ، وخاصة بعد أن منح البنادقة امتيازات تجارية خاصة فيها سنة ١٢٧١ . وفي هذه السنة بالذات زار ماركوبولو ميناء أياس ووصف عظمتها واتساع نشاطها التجارى[٢].

على أن سكوت سلطنة المماليك عن أرمينية الصغرى هذه السنوات القليلة لم يكن معناه ارتياح المماليك في مصر إلى النشاط المعادى الذى يقوم به ملوك أرمينية الصغرى ضد المسلمين، وبخاصة في مصر والشام . ولم يلبث أن وجه السلطان الظاهر بيبرس جيوشه ضد أرمينية الصغرى مرة أخرى سنة ١٢٧٥ . ولاندرى بالضبط السبب المباشر لتلك الحملة ، وإن كانت ثمة إشارة في بعض المراجع إلى أن معين الدين البرواناه[٣]كتب إلى السلطان الملك الظاهر يحرضه على الدخول إلى سيس ، وقال له « اقصد هذه السنة سيس ، وفي السنة الآتية أملكك البلاد[٤]» وكان هجوم المماليك تلك المرة سريعاً خاطفاً ولكنه عنيفاً مدمراً ، إذ عهد السلطان بيبرس إلى الأميرين قلاون الألفى وبيليك الخازندار بقيادة العسكر ، فأخذوا معهم المراكب مفصلة على ظهور البغال ليجمعوا أجزاءها في قيليقية ويعبروا فيها أنهارها . وما كاد المماليك يستولون على المصيصة ، حتى لحق بهم السلطان بيبرس نفسه ، « فانتهبها وهدم قصور التكفور ومناظره وبساتينه » . وفي الوقت

---

(١) المقريزى السلوك ، ج ١ ص ٥٧٨

(٢) Marco Polo : op. cit., p. 94.

(٣) البرواناه ، لقب معناه الحاجب ، والمقصود به هنا وزير سلطان سلاجقة الروم .

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ؛ ص ٢٢٥

الذى قضى السلطان العيد في سيس ، أرسل إلى أياس فريقاً من الجند « فنبهوا وحرقوا وقتلوا جماعة ، وكان قد فر من أهلها نحو الألفين ما بين فرنج وأرمن في مراكب ، فغرقوا جميعاً في البحر » . هذا في حين انبثت الغارات في الجبال « فقتلوا وأسروا وغنموا » . وأخيراً عادت جيوش المماليك إلى أنطاكية وعلى رأسها السلطان بيبرس ، بعد أن « غنموا ما لا يحصى كثرة وطرحت الغنائم بمرج أنطاكيه ، فملأته طولاً وعرضاً »(١) .

ولا أدل على ضعف إيلخانية مغول فارس في ذلك الدور من أن السلطان الظاهر بيبرس فعل كل ذلك بأرمينية الصغرى دون أن يتقدم حلفاؤها المغول إلى مساعدتها . بل إن السلطان الظاهر بيبرس أراد أن يوجه لطمة أخرى مباشرة إلى إيلخانية مغول فارس ليثبت لأمراء أرمينية الصغرى وملكها أن المغول أضعف من أن يحموا أنفسهم ، فاختار بيبرس أن يهاجم بلاد سلاجقة الروم التى كانت مشمولة بالحماية المغولية . وفعلاً نجح بيبرس فى أن يمزق الجيش المغولى عند أبلستين سنة ١٢٧٧ ، ثم احتل قيصرية حيث خطب له على منابرها « وجلس على تخت آل سلجون »(٢) . ولم يستطع كيخسرو الثالث سلطان سلاجقة الروم الذى كان صغيراً — أو وزيره سليمان البرواناه — سوى أن يعلنا خضوعهما لسلطان المماليك الظاهر بيبرس(٣) . وبعد عودة بيبرس ، حضر أبغا إيلخان مغول فارس ، فبكى عندما شاهد قتلى المغول مكدسين ، وحزن حزناً شديداً(٤) . ولعل هذا هو ما استهدفه بيبرس ، إذ جعل أبغا يبكى على مرأى من ملك سيس ، ليعلم الأخير مدى قوة حليفه وقدرته على حماية مصالحه ، فما باله بمصالح الغير ! ! (٥) .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٦١٧ — ٦١٨

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٣) D'OHsson : op. cit., III, p.p. 481 - 488.

(٤) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ — المجلد الثانى من الجزء الثانى ص ٦٢ — ٦٣ ، أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٥) عن هـذه الغزوة التى قام بها السـلطان الظاهر بيبرس فى بلاد سلاجقة الروم ، انظر الرسالة المفصلة التى كتبها محيى الدين بن عبد الظاهر ، وفيها أخبار الغزوة بالاسهاب :
(القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ١٣٩ وما بعدها) .

وإذا كان أبغا قد رغب في الإنتقام ، فإن ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى لم يكن أقل رغبة بعد أن تعرضت بلاده في مدة قصيرة لضربتين خطيرتين من جانب المماليك ، بحيث لم يكد يفرغ من تعمير مدنه وحصونه وميناء أياس بالذات ، حتى عاد المماليك ليهدموا البناء الذى أجهد نفسه في تعميره . وهكذا اتفق أبغا إيلخان مغول فارس وليو الثالث ملك أرمينية الصغرى على القيام بعمل حربي مشترك في بلاد الشام سنة ١٢٨٠ — ١٢٨١ ؛ أى في عهد السلطان المنصور قلاون (١٢٧٩ — ١٢٩٠) . وكانت هذه الغزوة الخطيرة أهم عمل حربي قام به إيلخانات فارس منذ وفاة هولاكو ضد سلطنة المماليك ؛ وفيها وقف الأرمن جنباً إلى جنب مع المغول لمحاربة المماليك(١) . وزاد من خطورة هذة الحملة أن الأمير سنقر الأشقر أظهر عداءه للسلطان قلاون ، وفر مستنجداً ببلاط المغول ، فأطلع أبغا على كثير من خبايا المماليك(٢) .

وكان أن أرسل أبغا قوة استطلاعية من المغول إلى شمال الشام سنة ١٢٨٠ ، واستطاعت هذه القوة أن تحتل عينتاب وبغراس ودربساك ، فضلاً عن حلب التى دخلها المغول « وأحرقوا الجوامع والمساجد والمدارس المعتبرة ودار السلطنة ودور الأمراء »(٣) . وبعد ذلك انسحب المغول مرة أخرى إلى الجزيرة ، مما يؤكد أن هذه الغزوة كانت استطلاعية لمجرد تمهيد الطريق للغزوة الأخرى الكبيرة في العام التالى . وفعلاً خرج أبغا بنفسه إلى الشام على رأس جيش كبير من إقليم الجزيرة في سبتمبر سنة ١٢٨١ ، ثم لحق به أخوه منكوتمر الذى أتي من كابادوكيا عن طريق عينتاب ، وانضم إليهما ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى(٤) . وقد قدر المؤرخون جيش أبغا بخمسين ألف مقاتل من المغول ، فضلاً عن ثلاثين ألفاً من « حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم » ، فيكون المجموع ثمانين

---

(١) Setton : op. cit., II, p. 655.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٩ هـ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٩

(٤) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ؛ ج ٢ ، م ٢ ، ص ٨٣

ألفاً[١] . ثم زحف الجيش المغولى على وادى العاصى ، فوصل أمام حمص حيث كان جيش المماليك مرابطاً تحت قيادة السلطان قلاون . وفي موقعة حمص التى دارت بين الطرفين في نهاية أكتوبر سنة ١٢٨١ حلت الهزيمة بالمغول وحلفائهم « وهلك منهم خلق كثير » فولوا مدبرين عبر الفرات . أما ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى ، فقد انسحب عائداً إلى بلاده ، وإن كان قد وقع في الطريق في كمين أعده له التركمان والأكراد ، فخرج إليه الأمير شجاع الدين السناني « فقتلهم وأسرهم عن آخرهم ، بحيث لم يفلت منهم دون العشرين »[٢] .

ولا شك في أن رغبة المماليك في الإنتقام من أرمينية الصغرى لتواطئها مع المغول كانت شديدة عاجلة ، ولكن أجل من أخذ الثأر أن أرغون — إيلخان مغول فارس (١٢٨٤ — ١٢٩١) — كان شديد العطف على المسيحيين الأمر الذى جعل ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى يقصد بلاطه ليعرب عن ولائه له ويطلب مساندته . ويبدو أن السلطان المنصور قلاون خشى تدخل المغول إن هو هاجم أرمينية في ذلك الدور ، فوافق على عقد الصلح مع ليو الثالث — وهو في حقيقة الأمر هدنة لمدة عشر سنوات — وتم ذلك في يونيو سنة ١٢٨٥ . وكانت شروط هذه الهدنة قاسية بالنسبة للأرمن ، إذ كان عليهم أن يدفعوا جزية سنوية قدرها ألف ألف درهم ، فضلاً عن منح كثير من الإمتيازات لسلطنة المماليك ، ومع ذلك فلم يكن هناك حل أمام صاحب سيس غير الخضوع[٣] . ومن ناحية أخرى لجأ السلطان المنصور قلاون

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٦٩٨

(٣) تعتبر هذه الهدنة فى نظرنا على جانب خطير من الأهمية نظرا لأنها — فيما نعلم — النموذج الوحيد الكامل للاتفاقيات بين سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى . وقد ذكر نص هذه الهدنة كاملا محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ؛ ص ٩٣ ومابعدها . هذا وقد ذكر القلقشندى نص هدنة أخرى يغلب عليها طابع الاختصار والتعميم ، ولكنه رجح أن تكون نموذجا لما كان يكتب به لصاحب سيس (صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٧ — ١٩) .

إلى مواجهة المنافسة الخطيرة التى تشكلها أرمينية الصغرى وميناؤها أياس في وجه التجارة المماليكية بأساليب مشابهة ، فأرسل السلطان إلى نوابه بالثغور يأمرهم بحسن معاملة التجار الأجانب وملاطفتهم والتودد إليهم وترغيبهم في الوفود إلى مصر ، ومراعاة العدالة فيما يجبونه منهم من أموال ، بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية(١) . كذلك أصدر السلطان قلاون منشوراً إلى التجار الذين يفدون على مصر « من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم ... » يرحب بهم ويصف لهم محاسن مصر ، ويغريهم على القدوم إليها بمتاجرهم « ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد ... فليعزم عزم من قدر له في ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ذخيرة ، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ... »(٢) .

وصادف في السنة نفسها التى خلف فيها هيثوم الثاني أباه ليو الثالث في حكم أرمينية الصغرى — وهى سنة ١٢٨٩ — أن استولى السلطان المنصور قلاون على طرابلس ، وعندئذ أحس هيثوم الثاني بضعف مركزه ، فلجأ إلى شراء مسالمة المنصور قلاون ، ومن بعده الأشرف خليل (١٢٩٠ — ١٢٩٣) بالمال . ويذكر المقريزى أن رسل هيثوم الثاني قدمت على السلطان قلاون وهو بطرابلس سنة ١٢٨٩ « يسألون مراحمه » ، فطلب منهم مرعش وبهسنا ، والقيام بالقطيعة على العادة ، « وأعادهم وقد خلع عليهم(٣) » . ولكن يبدو أنه إذا كان المنصور قلاون وإبنه الأشرف خليل قد قبلا رجاء هيثوم الثاني ، فإن ذلك ليس معناه التغاضى عن أمر أرمينية الصغرى ، وإنما لانشغالهما — على التوالى — بالإستعداد للإستيلاء على عكا ، آخر البقايا الصليبية الكبرى بالشام ، وما يستتبع ذلك من طرد الصليبيين نهائياً من أرض الشام ، وعندئذ يسهل أمر أرمينية الصغرى .

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٩٨
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٤٠ — ٣٤١
(٣) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٧٤٨

ومصداق هذا القول أن السلطان الأشرف خليل لم يكد يستولى على عكا سنة ١٢٩١ حتى كتب إلى ملك أرمينية الصغرى كتاباً أشاد فيه بعظمة الجيوش المماليكية ، ودعاه إلى حمل القطيعة المقررة إلى الأبواب السلطانية ، والحضور بنفسه لتقديم واجب الولاء لسلطان المماليك قبل فوات الأوان[١]. واتبع السلطان خليل ذلك بالزحف على قلعة الروم سنة ١٢٩٢ ، فاستولى عليها بعد حصار أكثر من شهر ، وعندئذ قتل كثيراً من أهلها وهدم دورها ونهبها ، وكان من جملة الأسرى ستفن الرابع رئيس كنيسة أرمينية الصغرى ؛ واحتفل المسلمون بسقوط قلعة الروم احتفالا كبيراً [٢] .

وإذا كان الأشرف خليل لم يوغل في قيليقية عندئذ ، فإنه ما كاد يستقر في دمشق حتى أعد قواته للزحيف على سيس . ولكن ملك أرمينية الصغرى تدارك الأمر في سرعة ، فأرسل رسله « يطلب الصلح ورضاء السلطان عليه ، ومهما طلب منه من القلاع والمال أعطاه ، » . وكان أن شفع في صاحب سيس ، فتم الاتفاق على أن يتسلم نواب السلطان من صاحب سيس ثلاث قلاع هى بهسنا ومرعش وتل حمدون « ففرح الناس بذلك لأنه كان على المسلمين من بهسنا أذى عظيم »[٣] .

ويبدو أن مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٣ ، وما أعقب ذلك من اضطرابات صحبت قيام السلطان الناصر محمد بن قلاون ثم عزله بعد سنة وقيام السلطان العادل كتبغا (١٢٩٤ — ١٢٩٦) ، وماحدث في عهده من انخفاض النيل واشتداد الغلاء وانتشار الوباء . . .[٤] كل ذلك أثار جواً مضطرباً في سلطنة المماليك ، مما أعطى أرمينية الصغرى هى الأخرى

---

(١) زيتر شتين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٨ (لندن ، ١٩١٩) .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ورقة ٣٠١ (١) (مخطوط) .
مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ — ٣٩٠
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٣٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤
(٤) سعيد عبد الفتاح عاشــور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٠٣ — ١٠٨

فرصة تلتقط فيها أنفاسها مرة أخرى . على أن الأوضاع الداخلية في أرمينية الصغرى هى الأخرى لم تكن في ذلك الدور أقل اضطراباً من أحوال سلطنة المماليك ، إذ تنازل هيثوم الثاني عن الحكم لأخيه ثوروس الثالث سنة ١٢٩٢ ثم أجبر هيثوم على العودة إلى الحكم مرة أخرى ، ولكن أخاً ثالثاً — هو سمباد انتزع العرش لنفسه سنة ١٢٩٦ ، وظل في الحكم حتى عزله أخ رابع هو قسطنطين سنة ١٢٩٨[١] . وأخيراً عاد هيثوم إلى العرش وسط مظاهر الفوضى والارتباك التى عمت مملكة أرمينية الصغرى . وطوال هذه الفترة لم يكف ملوك أرمينية الصغرى عن التعلق بأهداب التحالف مع المغول فحاولوا إحياء فكرة القيام بحملة مشتركة ضد دولة المماليك . ومن أجل هذا الغرض قام هيثوم برحلة زار فيها بايدو إيلخان مغول فارس . ولما عزل بايدو وحل محله غازان في حكم دولة المغول ، بادر هيثوم بتقديم الولاء للإيلخان وربما أحس هيثوم بضعف مركز أرمينية الصغرى وحاجتها إلى مزيد من الحماية ، فسعى إلى التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية عن طريق عقد أواصر المصاهرة بين البيتين الحاكمين في الدولتين ، وذهب بنفسه لزيارة القسطنطينية سنة ١٢٩٥[٢] .

على أن اضطراب دولة أرمينية الصغرى من ناحية ودولة مغول فارس من ناحية أخرى لم يخف على المماليك في مصر . ويروى المقريزى أن « أخبار الخلف بين المغُل » وصلت إلى القاهرة ، فاستقر الرأى بين المماليك على انتهاز الفرصة « وأخذ سيس مادام الخلف بين المغل »[٣] . وكان ذلك سنة ١٢٩٨ في عهد السلطان المنصور لاجين (١٢٩٦ — ١٢٩٨) عندما خرجت حملة كبرى لتحقيق هذا الغرض ، على رأسها الأمين بدر الدين بكتاش الفخرى والأمير حسام الدين لاجين الرومى الإستادار ، والأمير شمس الدين اقسنقر كرتاى ، ثم انضم إليهم الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه . فلما سمع « متملك سيس » بأخبار هذه الحملة ، أرسل إلى

(١) Iogra : L'Armenie Cilicienne, p.p. 128 - 129.
(٢) Setton : op. cit., II. p.p. 656 - 657.
(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٨٣٧

السلطان يسأله العفو فلم يجبه[١] . وعند وصول هذه الحملة إلى حاب انضم إليها الأمير علم الدين سنجر الدوادارى ؛ ثم تفرع الجيش المماليكى إلى فرعين ، فتوجه الأمير بدر الدين بكتاش من بغراس إلى اسكندرونة ، ونازل تل حمدون ؛ في حين توجه الملك المظفر صاحب حماه وبقية الأمراء إلى نهر جهان ، ودخلوا جميعاً دربند سيس[٢] . وهناك اختلف زعماء الحملة ، فأشار الأمير بكتاش بالحصار ومنازلة القلاع ، في حين رأى سنجر الدوادارى الاكتفاء بالغارة فقط ، وطلب أن يكون مقدم العسكر ، أى له القيادة العليا على الحملة . على أن بكتاش لم ينازعه ووافقه على رأيه ، فأغار صاحب حماه على مدينةسيس وسار الأمير بكتاش إلى أذنه ، حيث اجتمعت الجيوش المماليكية .وبعد ذلك شرعت الحملة في العودة ، فاتجهوا من أذنه إلى المصيصة ومنها إلى بغراس فأنطاكية ثم حلب في طريقهم إلى مصر[٣] .

وكان الأمير بكتاش قد أرسل إلى السلطان في مصر يخبره بما كان من أمر الدوادارى وكيف أنه نازعه القيادة ومنعه من حصار المدن والقلاع للاستيلاء عليها ؛ فجاء في تلك الأثناء رد السلطان منكراً على الأمير الدوادارى مسلكه ، على أن تكون القيادة العليا للأمير بكتاش ، وألا ترجع الحملة إلى الديار المصرية إلا بعد فتح حصن تل حمدون ، فإن لم يفعلوا ذلك فلا إقطاع لهم بالديار المصرية . وهكذا عادت الحملة إلى أرمينية الصغرى بقيادة الأمير بكتاش ، فاتجهوا إلى تل حمدون وعندئذ وجدوها خالية بعد أن نزح من كان فيها من الأرمن إلى قلعة نجيمة ، فاستولى المماليك على تل حمدون وأقام الأمير بكتاش حامية فيها[٣] .

وفي تلك الأثناء أرسل الأمير بلبان الطباخى نائب حلب عسكراً استولوا على قلعة مرعش . على أن الأخبار جاءت إلى الأمير بكتاش — وهو على تل

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٤٣٧
النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣١٦ (ب) (مخطوط) .
(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ص ٣٦ — ٣٧ ، المقريزى: السلوك ، ج ١ ص ٨٣٨ — ٨٣٩
(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ورقة ٣١٧ (ا) (مخطوط) .

حمدون — بأن الأرمن احتشدوا في واد تحت قلعة نجيمة وحميْص ، وأنهم يحتمون بقلعة نجيمة . فأرسل قوة من رجاله هاجموا قلعة نجيمة وقتلوا كثيراً ممن كان بالوادى من الأرمن . وعندما جاء البريد من السلطان بضرورة منازلة قلعة نجيمة حتى تفتح ، اختلف الأمراء ، فقال الأمير الدوادارى « متى نازلها الجيش بأسره لايعلم من قاتل ومن عجز وتخاذل ، والرأى أن يقاتل كل يوم أمير بألفه » . وأخذ يتباهى بشجاعته ويصغر من شأن القلعة ويقول : « أنا آخذها في حجرى » . . فوافقه الأمراء على رأيه وتقرر أن يبدأ هو بمحاولة الاستيلاء على قلعة النجيمة . ولكنه ما كاد يقترب من سور القلعة حتى أصابه حجر المجنيق فقطع مشط رجله وسقط عن فرسه إلى الأرض وكاد الأرمن يأسرونه لولا أن أنقذه المماليك . ثم أرسل إلى حلب ومنها إلى القاهرة[١] .

وقد دفع ذلك المماليك إلى الاستماته للاستيلاء على تلك القلعة ، فأقاموا الستائر لتحميهم من أحجار المنجنيق ، واقتربوا من السور ونقبوه ، فاضطرت القلعة إلى التسليم أخيراً ، بعد أن قلت المياه بداخلها . وتذكر المراجع أن المماليك لم يكتفوا بالاستيلاء على هذه القلعة ، وإنما استولوا على عدد آخر كبير من حصون الأرمن ، منها النقير وحجر شغلان وسرفندكار وزنجفرة وحُمْيص[٢] . وقام الأمير بكتاش بتسليم هذه القلاع كلها إلى سيف الدين اسندمر كرجى — أحد أمراء دمشق — وعينه نائباً بها .

أما الملك هيثوم ملك أرمينية الصغرى ، فكان لايزال يأمل في مساندة المغول لردع المماليك وكف أيديهم عن مملكته . ولم تلبث أن أتيحت الفرصة لهيثوم لإثارة احتكاك بين غازان حاكم المغول وسلطنة المماليك . ذلك أن غازان أرسل أحد رجاله — وهو سلامش بن أفال — إلى بلاد الروم لأخذها ، ولكن سلامش انشق عن سيده وأرسل إلى السلطان المنصور لاجين في مصر يطلب مساعدته على قتال غازان[٣] . ولما هزم سلامش فر إلى مصر حيث

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٨٤٠

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٤٣٨ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١٧ (ب) .

(٣) بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ١٩٧ (ب) .

أكرمه السلطان وأمده بجيش يعود به إلى بلاده لإحضار عياله . على أن سلامش لم يلبث أن وقع في قبضة غازان ، فقتله . ومهما يكن من أمر ، فإن « سلامش هذا من أكبر الأسباب في حركة غازان إلى بلاد الشام . ذلك أنه نهب ماردين بعسكر حلب ، وفعل أفعالاً قبيحة ، فحرك فعله ما عند غازان وجعله حجة لمسيره[1] » .

وكان أن تحرك غازان للانتقام سنة ١٢٩٩ ، وشاركه هيثوم ملك أرمينية الصغرى على رأس خمسة آلاف من رجاله . ولم يكد الأمير أسندمركرجى « متولى فتوحات سيس » يعلم بحركة المغول ، حتى أسرع بترك ما تحت يده من قلاع وقصد حلب . وعندما زحف غازان ومعه الملك هيثوم على الشام حاول الناصر محمد بن قلاون — في سلطنته الثانية — أن يصد المغول ، ولكن الهزيمة حلت بالمماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماه[2]. وكان أن فر السلطان الناصر محمد عقب تلك الهزيمة إلى دمشق حيث عم الأهالى الذعر والقلق . ولم يلبث أن أرسل غازان أماناً لأهل دمشق ، قرأه أحد رجال التتار على الناس في المسجد الأموى ، ندد فيه غازان بالمماليك وحكمهم ، ووعد أهالى دمشق ، بأنه لن « يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية ، وأن يكفوا إظهار التعدى عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم[3]. » على أنه إذا كان غازان لم يحفظ عهده ، فإن كتاب المسلمين يرجعون ذلك إلى تأثير شريكه هيثوم ملك أرمينية الصغرى . وتشير المراجع إلى التحالف القوى في ذلك الدور بين غازان إيلخان مغول فارس وهيثوم الثاني ملك أرمينية الصغرى ، وانضم إليهما بعد ذلك ملك جورجيا في محاولة كبرى للقضاء على دولة المماليك[4]. وهكذا واصل المغول يصحبهم الأرمن تقدمهم في بلاد الشام ، حتى وصلوا

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٨

(٢) Howorth : Hist. of the Mongols, vol. III, p. 431.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ورقة ٣٢٥

(٤) Tamarati : L'Eglise Georgienne dès Origines jusqu'a nos jours ; p. 436.

الصالحية(١) ، فنهبوها وخربوها « وأخذوا ما بالجامع والمدارس من البسط والقناديل ، ونبشوا على الخبايا فظهر لهم منها شئ كثير . . . وكان سبب نهب الصالحية أن متملك سيس بذل فيها مالاً عظيماً ، وكان قد قصد خراب دمشق عوضاً عن بلاده ، فتعصب الأمير قبجق ولم يمكنه من المدينة ، ورسم له بالصالحية . فتسلمها متملك سيس وأحرق المساجد والمدارس ، وسبي وقتل وأخرب الصالحية ، فبلغ عدة من قتل وأسر منها تسعة آلاف وتسعمائة نفس(٢) » ولكن إذا كان هيثوم ملك أرمينية الصغرى قد استطاع أن ينتقم من سلطنة المماليك بما فعله بالصالحية ، فإن المسلمين لم يغفروا للأرمن فعلهم ، وظلوا يذكرون لهم أن « أثرهم بالصالحية باق ، ولو مكنوا من دمشق لمحوا آثارها ونسوا أخبارها(٣) . »

ومهما يكن من أمر ، فإن النصر الذى أحرزه غازان وحليفه هيثوم لم تكن له ثمرة ، إذ اضطروا إلى الانسحاب بعد قليل ، مما مكن سلطنة المماليك من استعادة سيطرتها على شمال الشام . وقد حاول غازان غزو بلاد الشام سنة ١٣٠١ ، ١٣٠٣ ؛ ولكن المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد أنزلوا بالمغول هزيمة قاسية في موقعة مرج الصفر قرب دمشق ١٣٠٢ - ١٣٠٣ ، فولوا الأدبار عبر الفرات . ويقال إن غازان لم يحتمل مرارة الهزيمة ، فمات بعد سنوات قليلة(٤) .

وهكذا أصبح الطريق إلى قيليقية مفتوحاً مرة أخرى أمام جيوش المماليك وخاصة بعد أن جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن « تكفور متملك سيس منع الحمل(٥) وخرج عن الطاعة وانتمى لغازان(٦) » . وكان الأمير بدر الدين بكتاش

(١) قرية كبيرة فى لحف جبل قاسيون ، وهى مطلة على دمشق (ياقوت : معجم البلدان) .
(٢) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ، ص ٨٩١
(٣) العمرى : التعريف ، ص ٥٦
(٤) زيترشتين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١١٨ — ١٢١ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ، ص ١٨٩ — ١٩٧
(٥) المقصود بالحمل الضريبة السنوية — المالية والعينية — التى تعهد ملك أرمينية الصغرى بدفعها سنويا لسلطنة المماليك .
(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٥٤

وخاصة بعد أن جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن « تكفور متملك سيس منع الحمل - وخرج عن الطاعة وانتمى لغازان » . - وكان الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح قد خرج سنة ١٣٠٢ ومعه الأمير عز الدين أيبك الخازندار على رأس جيش لمهاجمة أرمينية الصغرى ، فصاروا إلى حماه حيث توجه معهم نائبها الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى ، واتجه الجميع إلى بلاد سيس ، وأحرقوا الزروع وانتهبوا ما قدروا عليه ، وحاصروا مدينة سيس ، وغنموا من سفح قلعتها شيئاً كثيراً[١] » . وفي سنة ١٣٠٣ جهز صاحب سيس مراكب تجارية إلى قبرس تحمل بضائع قيمتها قريب مائة ألف دينار ، فألقاها الريح على منية دمياط ، فاستولت عليها حكومة المماليك[٢] .

على أن السلطان الناصر محمد لم يكتف بذلك ، وإنما ما كاد يفرغ من إنزال الهزيمة بالمغول في موقعة مرج الصفر ، حتى قرر تأديب صاحب سيس . وكان أن خرجت حملة كبرى من القاهرة سنة ١٣٠٤ بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح ومعه الأمير علم الدين سنجر الصوابي والأمير شمس الدين سنقر شاه المنصورى ، وغيرهم . ومن دمشق اتجهت هذه الحملة شمالاً قاصدة بلاد الأرمن في قيليقية . ولم يلبث أن انتقم المماليك لما حل بالصالحية « فحرقوا مزارع سيس ، وخربوا الضياع ، وأسروا أهلها ، ونازلوا تل حمدون ، وقد امتنع بقلعتها جماعة كثيرة من الأرمن فقاتلوهم ، حتى فتحت بالأمان »[٣] .

وهكذا ساءت أحوال أرمينية الصغرى بصورة واضحة منذ بداية القرن الرابع عشر[٤] . ولم يستطع هيثوم الثاني أن يحتمل مزيداً من الضربات فتنازل سنة ١٣٠٥ لابن أخيه ليو الرابع ، ولكن الأمر انتهى سنة ١٣٠٧ بأن أحد أمراء المغول — وهو برلغوا — قتل هيثوم الثاني والملك ليو الرابع

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أحوال البشر ، ج ٤ ص ٤٢ — ٤٧

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٩٤٢

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ورقة ٢٩ (مخطوط) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٤٩

(٤) Howorth : op. cit., III, p. 579.

وأربعين من كبار أمراء الأرمن . ويشرح المقريزى سبب تلك الكارثة بأن هيثوم كان يقدم الأموال للمغول مثلما يقدمها لمصر ، وفي كل سنة يحضر إليه أمير من قبل إيلخان مغول فارس لحمل « القطيعة » . وفي السنة المذكورة حضر إليه من أمراء المغول برلغوا — وكان قد أسلم وحسن إسلامه — فعزم على بناء جامع في سيس . ولم يحتمل هيثوم الأمر ، فكتب إلى خربندا إيلخان مغول فارس يخبره بأن برلغوا يخونه وأنه يريد أن ينضم إلى جانب سلطنة المماليك بمصر ، الأمر الذى جعل خربندا يتهدد برلغوا ويستدعيه فوراً ولما علم برلغوا بوشاية هيثوم ، قتله على الوجه السابق (١) .

وهنا نلاحظ أنه زاد من ضعف أرمينية الصغرى في ذلك الدور بالذات أنها فقدت الدعامة الكبرى التى كانت تستند إليها ، ممثلة في دولة مغول فارس. ذلك أن دولة المغول في فارس أخذت تتحول في سرعة إلى الإسلام منذ نهاية القرن الثالث عشر ، فتعاقب على حكمها بضع حكام مسلمين ، مثل غازان وأولجاتيو وبوسعيد(٢). وقد عقد الأخير صلحاً مع دولة المماليك سنة ١٣٢٠ ، ويعتبر هذا الصلح نقطة تحول خطيرة في العلاقات بين سلطنة المماليك من ناحية وإيلخانية مغول فارس من ناحية أخرى ، إذ هدأت العلاقات بين الطرفين . وإذا كان ملوك أرمينية الصغرى الأوائل قد اعتمدوا على النعرة الدينية في استثارة المغول وكسب تأييدهم ضد سلطنة المماليك ، فإن تحول مغول فارس إلى الإسلام قد أفقد ملوك أرمينية سندهم ، وجعل مملكتهم تقف معلقة في الهواء وسط محيط إسلامى واسع .

ولعل هذا الإحساس هو الذى جعل أوشين ملك أرمينية الصغرى (١٣٠٨ — ١٣٢٠) يحرص على استرضاء سلطنة المماليك والوفاء بالالتزامات المفروضة عليه تجاهها . وقد أرسل أوشين إلى نائب حلب يعتذر عما حدث ويقول إن المغول وحدهم يتحملون مسئولية الاعتداء على دولة المماليك وشفع رسالته بهدايا ثمينة ، مع التعهد بإرسال الإتاوة المفروضة عليه بانتظام(٣).

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٨

(٢) Howorth : Hist. of the Mongols, vol. 3, p. 396.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ورقة ٢٤ (مخطوط) .

وفعلاً حافظ أوشين على عهوده ، فيذكر المقريزى في حوادث سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) أن رسل سيس وصلوا بالحمل على العادة «ومن جملته طشت ذهب مرصع بالجواهر» . وفي حوادث سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) يقول إن رسل سيس وصلوا بهدية «منها طشت ذهب وإبريق بلور مرصع بالجوهر ، وكتاب يتضمن الهناء بالعود إلى الملك ، فأجيب بالشكر» ويقصد بالعبارة الأخيرة التهنئة بعودة السلطان الناصر محمد إلى منصب السلطنة للمرة الثالثة (١٣٠٩ — ١٣٤٠) . وفي حوادث سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) يقول إن حمل سيس «قدم على العادة» إشارة منه إلى أن صاحب سيس استمر منتظماً في الوفاء بما عليه[١] .

على أنه يبدو أن سكوت المماليك عن أرمينية الصغرى تلك السنوات قد أطمع ملكها أوشين في محاولة عدم الوفاء بالتزاماته تجاه سلطنة المماليك ؛ لا سيما وأن الحالة الإقتصادية ساءت في أرمينية الصغرى بشكل واضح منذ بداية القرن الرابع عشر ، بسبب ما عانته البلاد من هجمات المماليك من ناحية وكثرة مشاكلها الداخلية من ناحية أخرى . وفعلا لجأ أوشين إلى «منع الحمل» سنة ١٣٢٠ (٧٢٠ هـ) ، الأمر الذى حرك ضده السلطان الناصر محمد بن قلاون من جديد[٢] . وربما شجع المماليك على مواصلة إغاراتهم على أرمينية الصغرى تلك الأخبار التى أخذت تتسرب إلى القاهرة عن اشتداد الصراع الداخلى في ارمينية الصغرى بين الملوك والأمراء ذوى النفوذ وكبار رجال الدين — وجميعهم يؤيدون الإرتباط بروما والتحالف مع الغرب — ، وبين معارضيهم في سياستهم الغربية من ناحية أخرى . وهذا الصراع هو الذى أدى إلى مقتل الملك ليو الرابع وعمه هيثوم الثاني بأيدى معارضيهم سنة ١٣٠٨ ، ثم إلى مقتل أوشين الأول سنة ١٣٢٠ ، فخلفه في الملك إبنه ليو الخامس (١٣٢٠ — ١٣٤١)[٣] . وهكذا أصبح بلاط سيس مسرحاً لجرائم دموية ،

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، ٨٦ ، ١٨٥
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠٣
(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ص ٧٨ ، ٨٨
Howorth : Hist. of the Mongols, vol. 3, p. 602.

وخاصة في عهد ليو الخامس الذى كان قاصراً ، فظل تحت الوصاية حتى سنة ١٣٢٩ يشاهد ما يحيط به من جرائم ويتشبع بروحها ، حتى أنه لم يكد يباشر سلطته الفعلية في السنة السابقة ، حتى بادر بدوره بقتل زوجته وأبيها(١) . وجميع هذه الأخبار كانت تتسرب بطريقة أو أخرى إلى القاهرة ، وأشار المؤرخون المسلمون إلى بعضها ، فيقول المقريزى في حوادث سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) « ... وفيها قدم البريد بأن أوشين متملك سيس هلك ، وقام من بعده إبنه ليفون (ليو) وله من العمر اثنتى عشرة سنة ... » (٢) .

ثم إن هذه الأخبار عن سوء أوضاع مملكة أرمينية الصغرى وصلت سلطنة المماليك مصحوبة بما كان هناك من اتصالات خفية في ذلك الدور بين ملوك أرمينية الصغرى من ناحية والغرب الأوربي من ناحية أخرى أملاً في الحصول على مساعدات لإنقاذ ذلك الوليد الصغير الذى تمخضت عنه الحركة الصليبية في الشرق الأدني . ذلك أن ليو الخامس ملك أرمينية الصغرى أرسل إلى البابا حنا الثاني والعشرين يطلب منه معونة عاجلة ، فرد عليه البابا يعرفه بانشغال ملوك أوربا بما كان بينهم من حروب ومنازعات داخلية . ومع ذلك فإن البابوية حرصت على إصدار النداء تلو النداء لاستثارة المسيحيين في الغرب لمساعدة الأرمن في قيليقية ، واستطاعت البابوية فعلاً أن تجمع بعض الأموال أرسلتها معونة إلى الملك ليو الخامس . وفي نفس الوقت أرسل البابا حنا الثاني والعشرون رسالة إلى بوسعيد إيلخان المغول — في يوليو ١٣٢٢ — يذكره بموقف أسلافه المشرف من أرمينية الصغرى وملوكها ومساعدتهم للمسيحيين بالشرق ، ويناشده إرسال نجدة سريعة لملك أرمينية الصغرى(٣) . ولا شك في أن جميع هذه الأخبار استثارت سلطنة المماليك ، فبادروا بإرسال حملة كبيرة نازلت سيس « واستولوا عليها عنوة بعد حصار ، وقتلوا أهلها وخربوها ، وعادوا على الأرمن فغنموا وأسروا منهم كثيراً وتوجهوا عائدين ... »(٤) .

---

(١) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 635.

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٢٣٧

(٣) Howorth : Hist. of the Mongols, III, p.p. 603 - 604.

(٤) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٢ — ١٤ (مخطوط) .

ولم يشأ ليو الخامس — وهو غارق في مشاكله الداخلية — أن يستثير سلطنة المماليك ، فبادر بإرسال رسله يحملون الهدايا إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٢٣ (٧٢٣ هـ) . ويقال إن هذه البعثة كان على رأسها قسطنطين بطريرك الأرمن ، الذى اعتذر للسلطان الناصر محمد عما حدث ، مما جعل الأخير يوافق على عقد هدنة مع أرمينية الصغرى لمدة خمس عشرة سنة اعتباراً من سنة ١٣٢٣ . وقد تعهد ليو الخامس بمقتضى هذه الإتفاقية بدفع جزية سنوية ضخمة قدرها خمسون ألف فلورين (مائة ألف درهم) ، بالإضافة إلى نصف دخل المكوس التى تجمع في ميناء أياس(١) . وكان المماليك قد دمروا أياس في حملتهم الأخيرة على أرمينية الصغرى ، فتعهد السلطان الناصر محمد بإعادة بنائها(٢) وبعد إبرام الإتفاقية المذكورة حرص ليو الخامس على تقديم الحمل أو الضريبة السنوية المفروضة على ملوك أرمينية الصغرى . ويبدو أن سلطنة المماليك كانت ترسل سنوياً أحد كبار الأمراء إلى أرمينية الصغرى لاستلام الحمل من متملك سيس ، بدليل ما يرويه المقريزى في حوادث سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) من أنه تم القبض على الأمير بكتوت القرماني « لامتناعه من التوجه لإحضار حمل سيس »(٣) . وبلغ من حرص ليو الخامس على استرضاء سلطنة المماليك في ذلك الدور أنه عندما أحس بازدياد نفوذ وصيه أوشين ، دبر مؤامرة لقتله ، متهماً إياه بإثارة الفتنة مع دولة المماليك ، فقطع رأسه وأرسلها إلى السلطان الناصر محمد إظهاراً لولائه ، فسر الناصر محمد بذلك ، وأرسل إلى ملك أرمينية الصغرى خلعة وسيفاً وفرساً(٤) .

وعندما شرع فيلب الخامس ملك فرنسا — تحت إلحاح البابوية — في مساعدة أرمينية الصغرى سنة ١٣٣٥ ، عاود المماليك مهاجمة أرمينية

(١) ذكر القلقشندى أن القطيعة المقررة على مملكة أرمينية الصغرى بلغت « ألف ألف ومائتى ألف درهم ، مع أصناف » (صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٠) .

(٢) D'OHsson : op. cit., vol. 4, p.p. 664 - 665.

(٣) المقريزى : السلوك ؛ ج ٢ ص ٢٥١ — ٢٧٢

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ص ٩٩

Howorth : op. cit., vol. 3, p. 604.

الصغرى . وقد ذكر المقريزى بعض تفاصيل تلك الحملة التى خرجت لغزو مملكة سيس سنة ١٣٣٧ (٧٣٧ هـ) ، ولكنه ربط بينها وبين تدخل سلطنة المماليك في شئون العراق لمناصرة فريق من الفريقين المتنازعين حولى الحكم ضد الفريق الآخر ؛ فقال إن سلطنة المماليك حرصت أن ترسل عسكرها « قريباً من الفرات » لمناصرة حلفائها في العراق من ناحية ، وغزو سيس من ناحية أخرى ، لأن ملكها « نقض الهدنة بقبضه على عدة مماليك ، فلم يعلم خبرهم وقطع الحمل المقرر عليه » . وكان أن عين الأمير أرقطاى مقدماً على العسكر المصرى ، يساعده بضع من كبار الأمراء ، مثل الأمير طوغاى الطباخى .. على أن ينضم إليهم عسكر الشام بقيادة الأمير قطاوبغا الفخرى . فإذا التقى العسكر المصرى بالعسكر الشامى في حلب ، تولى الأمير علاء الدين ألطنبغا نائب حلب القيادة العليا للحملة . وعندما وصلت الحملة الاسكندرونة ، وجدوا أن الأمير ملطغاى الغزى سبقهم إليها منذ شهرين ، حيث جهز المجانيق والزحافات والجسور والمراكب اللازمة لعبور نهر جهان[١] .

ويبدو أن أخبار حملة المماليك على أرمينية الصغرى جعلت ملكها ليو الخامس يهتز ، فبادر بإرسال رسله في البحر إلى دمياط ، ولكن السلطان الناصر محمد لم يأذن لهم بالقدوم عليه لأنهم لم يتصلوا بجهة الاختصاص ، وأخبرهم أن الأصول تتطلب منهم أن يعلموا نائب الشام بحضورهم ، فعاد الرسل إلى سيس . وكان أن أرسل ليو الخامس هدية إلى تنكز نائب الشام ، وسأله منع العسكر من بلاده ، وأنه مستعد لتسليم جميع القلاع التى تقع وراء نهر جهان للسلطان ، فأخبر تنكز السلطان الناصر محمد بذلك ، كما بعث إلى الأمير علاء الدين ألطنبغا — المقدم على العسكر — يأمره بمنع الغارة ورد الآلات والمعدات الحربية إلى بغراس . ولكن العسكر أصروا على مهاجمة إياس ، مخالفين أوامر ألطنبغا — فحاصروها بضعة أيام إلى أن استولوا عليها في اليوم الثامن للحصار[٢] . وفي ذلك اليوم بالذات أرسل ليو الخامس ملك أرمينية الصغرى (١٣٢٠ — ١٣٤١) مفاتيح القلاع ،

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ٣١٤
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٢٩

على أن يرد مانهب وسبي من بلاده ، فنودى برد السبي وأخرب الجسر الذى نصب على نهر جهان [١] . وتوجه الأمير مغلطاى الغزى فتسلم قلعة كوارة كذلك تسلم المماليك ثغر إياس ، وكان به برج كبير مبنى على البحر باسم البرج الأطلس ، فهدموه وأحرقوه عن آخره . وأخيراً عاد العسكر إلى الشام ، بعد أن استولوا على قلاع أرمينية الصغرى ، مثل قلعة نجيمة وقلعة سرفندكار وغيرهما[٢] .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الحملة تبدو في نظرنا على جانب خطير من الأهمية ، لما تشير إليه المراجع من أن أرمينية الصغرى غدت في حالة تبعية فعلية لسلطنة المماليك منذ ذلك الوقت . ويروى المقريزى أن السلطان الناصر محمد بن قلاون آقطع «أراضى سيس لنائب حلب ونائب الشام وغيرهما من أمراء الشام ، وأمر فيها جماعة من التركمان والأجناد ، فاستعملوا الأرمن في الفلاحة ، وحطوا عنهم الخراج ، فعمرت ضياعها . وعمل في كل قلعة من قلاع الأرمن نائب ورتب فيها عسكراً [٣] » . ويبدو أن السلطان الناصر محمد أشفق لما حل بأرمينية الصغرى على أيدى جيوشه من دمار وخراب ، فأمر بإعفائها من الخراج المقرر عليها لمدة ثلاث سنوات كما عقد معها هدنة لمدة عشر سنوات . وفي الوقت نفسه تعهد ليو الخامس بعدم الاتصال بالغرب الأوربي وعدم قبول أية مساعد تأتيه من الخارج[٤] . ومن ناحية أخرى فإن أمراء المماليك الذين أقطعوا أراضى أرمينيه الصغرى عملوا على إنعاشها ورعاية أرضها ، فتوجه الأمير تنكز نائب الشام إلى بلاد سيس سنة ١٣٣٩ (٧٣٩ هـ) « لكشف البلاد التى أنعم بها عليه » . ورسم السلطان الناصر محمد بأن يحمل إلى بلاد سيس « عشرون ألف غرارة غلة برسم تقاويها وتخضيرها . . »[٥] .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١١٩
(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٣١٤
(٣) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٣٠
(٤) Cam. Med. Hist. ; vol. 4, p. 636.
(٥) المقريزى : السلوك ؛ ج ٢ ، ص ٤٣٩ ، ٤٦٧

على أن الحقيقة الكبرى التي تبدو لنا من دراسة تاريخ أرمينية الصغرى في ذلك الدور – قرابة منتصف القرن الرابع عشر – هى تدهور أحوالها تدهوراً خطيراً مستمراً ، الأمر الذى أقعدها عن دفع الخراج المقرر عليها لدولة المماليك . ولم تقدر سلطنة المماليك بمصر موقف تلك المملكة الصغيرة ، فخرجت الجيوش سنة ١٣٤٣ (٧٤٤ هـ) « وأثروا في أهل سيس آثاراً قبيحة حتى أذعنوا لحمل الخراج »[١] . وفي عصر السلطان الصالح إسماعيل (١٣٤٢ – ١٣٤٥) ابن السلطان الناصر محمد ، أرسل جاى لوزجنان ملك أرمينية الصغرى[٢] يستعطف سلطان المماليك ، ويقول « إن بلاده خربت » ؛ فسامحه السلطان بنصف الخراج ، بمعنى أنه وافق على إنقاص الخراج المفروض على بلاده إلى النصف . ويشير المؤرخون المسلمون بعد ذلك إلى هذه الحقيقة بعبارة « وفيها قدم حمل سيس بحق النصف »[٣] .

وزاد من سوء الأحوال في أرمينية الصغرى في ذلك الدور انتشار الوباء الأسود بين ربوعها ، وهو الوباء الذى انتشر قرابة منتصف القرن الرابع عشر في كثير من أجزاء العالم المعروف – بآسيا وأوربا وإفريقية – وترك آثاراً خطيرة في الأوضاع الحضارية والإقتصادية [٤] . ويبدو أن هذا الوباء انتشر في مصر قبل أن يمتد إلى قيليقية ، الأمر الذى جعل الأرمن يشمتون في المماليك ، وهو ماعبر عنه بعض الشعراء المعاصرين بقولهم[٥] :

سكان سيس يسرهم ماساءنا وكذا العوائد من عدو الدين
الله ينفذه إليهم عاجلاً ليمزق الطاغوت بالطاعون

---

(١) المرجع السابق ؛ ص ٦٥٠

(٢) كان ليو الخامس آخر ملك أرمنى يحكم أرمينية الصغرى ؛ وبعد مقتله سنة ١٣٤١ تعاقب على عرش تلك الدولة خمسة ملوك كانوا جميعا ينتمون الى بيت لوزجنان ، وهو البيت الحاكم بجزيرة قبرس . وقد نظر الأرمن الى اولئك الملوك الغربيين الأصل نظرة كراهية ، واعتبروهم أغرابا دخلاء . وكان أول هؤلاء الملوك الخمسة الملك قسطنطين الذى لم يحكم سوى عاما واحدا ثم خلفه أخوه جاى لوزجنان (١٣٤٢ – ١٣٤٥) . انظر :

Stubbs : op. cit., ps. 218, 226.

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٧٢٢ ، ٧٧١

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ – أوربا العصور الوسطى – الطبعة الثالثة ، ج ١ ص ٦٠٩

٢ – العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٢٦

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ١٠ ، ص ٢١٢

وسرعان ما امتد ذلك الوباء إلى أرمينية الصغرى ليطحنها مثلما طحن بقية البلاد القريبة والبعيدة سواء ، فازدادت أحوالها سوءاً ، وكتب المقريزى في حوادث سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩) يقول : « وعظم الموتان ببلاد سيس ، ومات من أهل تكفور في يوم واحد بموضع واحد مائة وثمانون نفساً ، وخلت سيس وبلادها . . . »[١]

وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية في أرمينية الصغرى اضمحلال نشاطها التجارى ، وانصراف التجار عن مينائها إياس . ذلك أن انهيار الدولة الإيلخانية في فارس والعراق بعد وفاة بوسعيد سنة ١٣٣٥ ، جاء مصحوباً بانتشار الفوضى والاضطراب ، الأمر الذى هدد الطريق البرى المار بتبريز . والتجارة لايمكن أن تزدهر في أى زمان ومكان إلا في ظل عاملين ، هما الحرية والأمن ، فإذا انعدم أحدهما أو كلاهما فلا ازدهار تجارى ولا انتعاش اقتصادى . ولم يقتصر الأمر بالنسبة لأرمينية الصغرى على انعدام الأمن والاستقرار في طريق تبريز الذى يصب في ميناء أياس ، بل حدث أيضاً أن فقد التجار المترددون على أرمينية الصغرى حريتهم في مواصلة نشاطهم ، بعد أن فرض ملوك أرمينية الصغرى من آل لوزجنان على التجارة والتجار ضرائب باهظة مرهقة ، مما صرف التجار عن أرمينية الصغرى وميناء إياس جميعاً [٢]

ومع هذا ، فإن إغارات المسلمين المحيطين بأرمينية الصغرى لم تنقطع ولم تقتصر هذه الإغارات على ما قام به المماليك ، وإنما وجه سلاجقة الروم — أو قونية — ضربات متواصلة لمملكة أرمينية الصغرى طوال القرن الثالث عشر. وعندما سقطت دولة سلاجقة الروم عقب وفاة علاء الدين الثالث (١٢٩٧—١٣٠٧)، قامت على انقاضها إمارات تركية في آسيا الصغرى ، وأخذت بعض هذه الإمارات تواصل هجماتها على أرمينية الصغرى . ويبدو أنه كان هناك نوع من التقارب بين سلطنة المماليك في مصر وإمارة بنى قرمان بالذات

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٤

(٢) Dulaurier : Recherches sur la chronologie Armenienne ; Tome 1, p.p. 70

وزاد من هذا التقارب الرغبة في النيل من مملكة أرمينية الصغرى في القرن الرابع عشر . يؤيد هذا ماذكره القلقشندى عن بنى قرمان من عظم مكانتهم عند سلاطين المماليك وتبادل المكاتبات بين الطرفين « لنكاياتهم في متملك سيس وأهل بلاد الأرمن ، واجتياحهم لهم من ذلك الجانب ، مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب »(١) . الأمر الذى أدى إلى خراب بلاد أرمينية الصغرى .

ولم يستطع سلاطين المماليك في مصر أن يقدروا تلك الظروف الخطيرة التى عاشت فيها أرمينية الصغرى في النصف الأخير من القرن الرابع عشر، فاستمروا يرهقونها بالمطالب ويفرضون عليها الالتزامات . ويبدو أن الأموال السنوية المحمولة من مملكة أرمينية الصغرى إلى سلطنة المماليك صارت تشكل مورداً هاماً لخزانة دولة المماليك، الأمر الذى عبر عنه محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله « وانتفعت خزائن الأموال بهذه الجملة العظيمة التى تحمل في كل سنة (من أرمينية الصغرى) »(٢) .ولكن مملكة أرمينية الصغزى ألفت نفسها في النصف الثاني من القرن الرابع عشر عاجزة تماماً عن دفع الأموال المفروضة عليها ؛ حتى بعد أن انقصت إلى النصف . وكان أن اعتبر المماليك العجز تمرداً ، وقرر السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ ، ١٣٦٣ — ١٣٧٦ م) غزو أرمينية الصغرى وإخضاعها نهائياً(٣). وحدث ذلك سنة ١٣٧٥ (٧٧٦ هـ) عندما عهد السلطان الأشرف شعبان إلى نائبه في حلب — اشقتمر المارديني — بغزو أرمينية الصغرى . ومن الواضح أن ليو السادس ملك أرمينية الصغرى (١٣٧٤ — ١٣٧٥) رأى بلاده على حالة من الضعف لاتمكنها من المقاومة ، ومع ذلك فقد استمرت عاصمته سيس تقاوم الحصار ثلاثة أشهر كاملة، تمكن المماليك بعدها من الاستيلاء عليها(٤)،

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢ — ١٣

(٢) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٩٣

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ص ٤٣٠ (طبعة بولاق) .

(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج ٢ ، ص ١٦٨

في حين لجأ الملك ليو السادس إلى قلعة جابان ، وهي قلعة حصينة تقع على نهر نهر جهان إلى الشمال الغربي من مرعش . ولكن جيوش المماليك اقتفت أثره ، وحاصرته في تلك القلعة تسعة أشهر كاملة ، مما يدل على مدى حصانة تلك القلعة(١). وأخيراً فتحت قلعة جابان أبوابها مستسلمة للغزاة ، فألقى المماليك القبض على ليو السادس آخر ملوك أرمينية الصغرى ، وسيق هو وأسرته إلى القاهرة . وقد عجز ليو السادس عن دفع الفدية المطلوبة منه لإطلاق سراحه ، فظل أسيراً في القاهرة ثمان سنوات ، ساءت فيها حالته وتدهورت صحته ، وماتت زوجته وطفلها ؛ وعندئذ سمح السلطان شعبان بإرسال أحد الأمراء الأرمن المرافقين للملك أرمينية إلى البابوية ليطلب المعونة والمساعدة . ويقال إن البابا رق لحال ملك أرمينية الصغرى ورفاقه في الأسر فأرسل إلى ملوك أوربا يستحثهم لجمع المال اللازم لفداء ليو السادس .وبعد الاتفاق ، والتعهد بعدم العودة إلى قيليقية مرة أخرى ، أطلق سراح ليو السادس سنة ١٣٨٢ ، فاتجه إلى بيت المقدس للحج ، ثم إلى قبرس ورودس فأيطاليا التي وصلها سنة ١٣٨٣ . وأخيراً استقر ليو السادس في باريس ، حيث مات في نوفمبر سنة ١٣٩٣ (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإنه بأسر ليو السادس سنة ١٣٧٥ سقطت مملكة أرمينية الصغرى « وانقرضت منها دولة الأرمن » على قول المؤرخ أبي المحاسن(٣). وكان لهذا الحدث رنة فرح عظيمة في العالم الإسلامي الذى لم ينس لأرمينية الصغرى وملوكها مواقفها المعادية في تأليب المغول ومحالفتهم ضد المسلمين ، فضلاً عن محالفة بعض القوى الأوربية المعادية لسلطنة المماليك . لذلك لاعجب إذا دقت البشائر ، وأعلن الناس حمدهم لله ، الذى مكنهم

---

(١) **Dulaurier : Etude sur l'Organisation Politique de la Petite Armenie, ps. 312, 720.**

(٢) **Atiya : op. cit., p. 15 (Introd).**

هذا ويقال ان ملك قشتالة هو الذى توسط عند السلطان شعبان للافراج عن ليو السادس — انظر :

Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 637.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ١١ ، ص ٦٦

من القضاء على ذلك العدو الخطير ، وأنشد الشعراء الأشعار في مدح السلطان الأشرف شعبان . ومن ذلك ما قاله الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب (١) :

الملك الأشرف إقباله   يهدى له كل عزيز نفيس
ساق إلى سوق العدى أدهما   وساعد الجيش على أخذ سيس

ومنذ سنة ١٣٧٥ ، غدت قيليقية تابعة لسلطنة المماليك ، فأشرف على شئونها أولا نائب إقليم حلب بالشام(٢) وبعد ذلك صار لها نائب مستقل يلقب في المراجع باسم « نائب سيس »(٣). وقد تردد لقب « نائب سيس » أكثر من مرة في المراجع المعاصرة . ومن الأمراء الذين تولوا نيابة سيس الأمير شرف الدين موسى بن محمد بن شهرى الكردى ، المتوفي سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) والأمير تغاى تمر المتوفي سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م) (٤) . وكان نائب سيس في رتبته مساوياً لنائب طرابلس(٥) .

(١) المرجع السابق ؛ ص ٣٨٨

(٢) Le Strange : Palestine Under Moslems, p. 27.

(٣) يذكر أبو المحاسن أن السلطان أرسل سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) مثالا « لنائب أذنه ولنائب حلب ولنائب سيس » . مما يدل على أنه كان عندئذ لكل منطقة من هذه المناطق الثلاث نائب مستقل .
(النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٧٧) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ١٩٥ ، ج ١٢ ص ٣٨

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٣٣